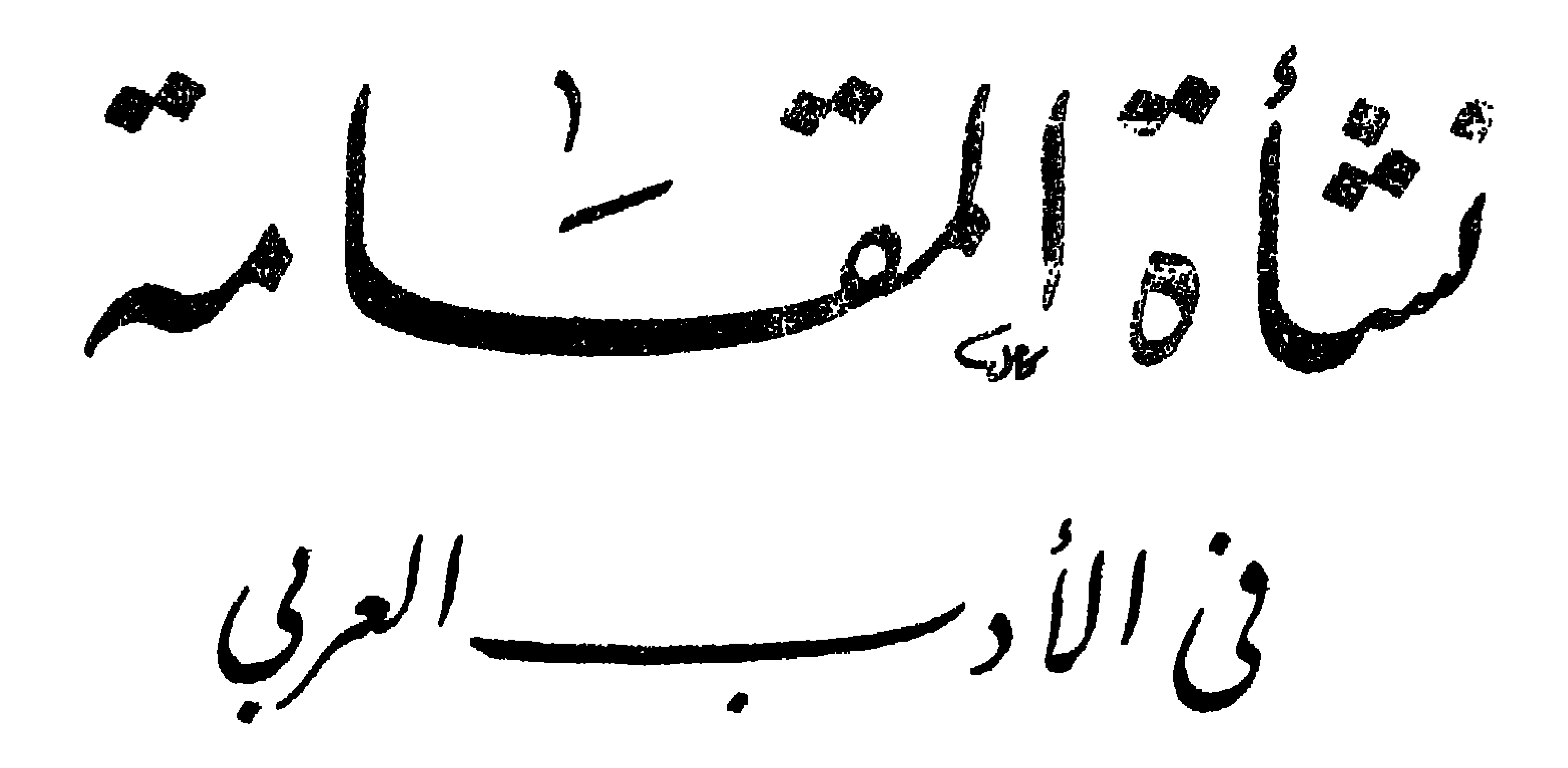




الدكتور حسن عباس



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقــــديـــــم

للدكتور محمد مصطفى هدّارة

« لقد استطاعت المقامة ان تلج بنا مجتمعات الناس ، وجعلتنا نعايشهم معايشة حقيقية حيثما كانوا ، وجعلتنا نشاهدهم فى دورهم وأنديتهم ، ودخلت بنا إلى عوالمهم فى الأسواق والفنادق والحانات والمساجد ، بل نقلتنا إلى قصور الحكام ، وساحات القضاء ، وأندية الأدباء ، وحلقات الوعاظ . وتفاوتت شخوصها بين ملوك وولاة وأدباء وقضاة ووعاظ ، وتخطت هؤلاء جميعا إلى اللصوص والشحاذين والقحاب والنخاسين ، وفى هذا كله كانت تصور لنا هموم هؤلاء القوم الفكرية والمعاشية ، وتعرض علينا من خلال حوادثها مظاهر حضارتهم ، وأسباب معايشهم ، وطرائق تعاملهم ، ومناحى الضعف والقوة فى أخلاقهم » .

تلك هى المقامة التى صدرت فى السنوات الأخيرة دراسات تتناولها فى المشرق و المغرب ، وتحاول استكناه طبيعة هذا الفن العربى المتميز الذى يعد ــ بلا شك ــ نوعا أدبيا فريدا قد يمت إلى القصة بصلة ، ولكن تبقى له خصائصه التى تفرده عن الأنواع الأدبية الأخرى .

بيد أن كل الدراسات التى تناولت المقامة، كانت بحق ـ كما وصفها حسن عبدالعال عباس. « فى جملتها غير مقنعة، وأغلبها محاولات سريعة للتعريف بأعلام هذا الفن »، وكانت تنقصها عناصر مهمة فى البحث العلمى الجاد، أهمها دقة الاستقصاء، والشمول، والعمق، واستكشاف المجهول. وهذه العناصر الأربعة الرئيسية هى نفسها التى جعلها حسن عبدالعال وكده فى بحثه الذى تقدم به لنيل درجة الدكتوراه، والذى يضعه الآن بين أيدى جمهور القراء فى قسمين، تخفيفا عليهم، بعد أن استتبعت غزارة المادة التى جمعها ضخامة البحث، مع خلوه من أى فضول يحب أصحاب البحوث الجامعية عادة أن يتكثروا به مباهاة وسمعة.

لقد اختار الباحث القرن السادس حدا زمنيا ليدرس فن المقامة فيه، وهو عصر شديد الخصوبة، لا فى إنتاج المقامات فحسب، بل فى إبداع كثير من الفنون الأدبية والموسوعات العلمية. ونرى الباحث قبل أن يتهيأ لولوج باحات القرن السادس، يتطلع إلى الماضى ليرصد تطور فن المقامة فى مرحلة الريادة التى يبرز فيها بديع الزمان الهمذانى بشموخه وأصالته فى القرن الرابع الهجرى، ثم يعقبه فى المشرق والمغرب مبدعون، تجاهل الباحثون أو جهلوا مقاماتهم مثل أبى العلاء المعرى، وأبى الهيجاء الأصفهانى، ومحمد بن الحسن الطوبى، بجانب المعروفين مثل ابن ناقيا، وابن شهيد، وابن شرف القيروانى. ولعل فى إبراز مثل هؤلاء المبدعين المجهولين فى القرن الخامس مايوضح أحد العناصر فى بحثه، بل فى منهجه الذى يأخذ به نفسه، منذ كتب بحثه الأول عن أسامة بن منقذ وحقق كتابه (العصا).

وتبدو دقة الاستقصاء فى كثير من الظواهر، منها تتبعه بالنقد العلمى الموضوعى مقامات ابن الجوزى، ونسبة كتاب الذخائر والتحف للقاضى الرشيد، وعشرات المواقف المماثلة. ومنها حديثه الدقيق عن مقامات ابن مارى ومقامات الحصكفى.

أما صفة الشمول فتتبدى فى عدم اقتصار حسن عبدالعال على المشرق وحده فى بحثه عن المقامات، ولكنه توغل فى المغرب العربى بحثا عن مقاماته الكثيرة التى يكتنفها الغموض بالنسبة للبحث العلمى، ورفع النقاب عن أكثر من عشرين مبدعا فى فن المقامات من خلال تنقيبه الدءوب فى مصادر المغرب العربى.

وهو لم يقف عند حدود البحث التاريخى عن المقامات ، ولا عند حدود استخراج نصوصها وتقديم ما وجده منها محققا ، بل انطلق باتجاهه الشمولى يدرس مضامين المقامات ، و يرصد اتجاهاتها التعليمية والوعظية والترفيهية والنقدية والوصفية ، ثم تغور فى أعماقها يستخرج عناصر أشكالها الفنية ، ويحلل الشخوص المقامية ، وعناصر الحوار والحبكة فى بنائها القصصى والدرامى ، ثم نراه يتجه إلى دراسة علاقة المقامة بالأنواع الأدبية المختلفة ، وتحليل أسلوبها ، ودراسة عناصر الحلى البديعية فيه ، وأنواع الصنعة الفنية المتعددة الألوان والقدرات .

وأما استكشافه المجهول فيتبدى فى كشفه عن المقامة الحصيبية للقاضى الرشيد ، وتتبعه الدقيق أخبار المقامات الضائعة ، كما أنه كشف لأول مرة عن نص المقامة القرطبية التى أفاض الدارسون فى الحديث عنها دون أن يطلعوا على نصها ، فخلطوا بينها و بين المقامة البلنسية لابن خاقان .

وأما صفة العمق فهى شاملة كل مايتناوله الباحث من نقاط ، بحيث تعد ركيزة منهجه العلمى ، فهو لا يرى قط الشيء من ظاهره ، ولا يكتفى بما يقوله السابقون أو يراه الباحثون ، بل يتحرى الدقة الكاملة فى كل مايقرؤه أو يكتبه ، ولا تطمئن نفسه حتى يصل إلى وجه الحق ، أو إلى مايراه صوابا ، فتراه يتحرى قول أستاذنا الدكتور شوقى ضيف عن مقامات السرقسطى إن راويها المنذر بن همام و بطلها السائب بن تمام فيثبت أن الصحيح هو أن بطل المقامات السرقسطية هو ابن حبيب السدوسى ، وراويتها السائب بن تمام ، أما المنذر بن همام فهو راوية ثانوى يظهر حينا ويختفى أحيانا ، و ينتهى دوره عند ذكر اسمه فى أول المقامة .

وهو لا يجد حرجا فى مناقشة أستاذه الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى فى دراسته مقامات ابن ناقيا ، أو فى مناقشة الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة ، أو الأستاذ الدكتور إحسان عباس بل العديد من الباحثين المعاصرين ، طلبا للحكم الصائب على العمل الأدبى عن طريق تعمقه وإحسان تحليله وفهمه .

وقد ثبّت الدكتور حسن عبد العال عباس قدمه فى ميدان البحث العلمى منذ أطلع جمهور القراء على عمله الدقيق فى تحقيق كتاب العصا ، ودراسته الشاملة العميقة

عن أسامة بن منقذ ، وهو الآن يضيف بعمله الجديد فى تأريخه مقامات القرن السادس ودراستها مأثرة علمية جديرة بالثناء والتقدير، ليستمد منها زادا يعينه على المضى فى طريقه باحثا جادا ، لايتهاون فى حق العلم ، ولا يقصر فى بذل جهد للوصول إلى الحقيقة ، والله من وراء القصد والسبيل.»

دكتور محمد مصطفى هدارة

أستاذ الأدب العربى ورئيس قسم اللغة العربية

بكليتى الآداب بجامعتى الإسكندرية وطنطا

وعميد كلية الآداب بجامعة طنطا

توطئة

أستطيع أن أزعم أنني لم أختر موضوع المقامة لنفسي بقدر ما اختارني هذا الموضوع لنفسه ، فحين فرغت من رسالتي التي تقدمت بها لنيل درجة الماجستير في الآداب من جامعة الإسكندرية (١) كان أسامة بن منقذ قد أتاح لي بحياته المديدة الحافلة وآثاره العديدة الضاربة في فنون الشعر والأدب والنقد والبلاغة والتاريخ وغيرها فرصة كبيرة للاقتراب من موضوعات دقيقة يصلح أكثرها موضوعا لدرجة الدكتوراه ، بل كانت آثاره العديدة التي أضع في خطتي أن أعود إليها فرادى لتعميق درسها أو نشرها صالحة لذلك ، ومن بينها كتابه البديع في نقد الشعر الذي أظهرت دراستي مدى الجناية عليه سواء في نشر نصه أم في درسه وفهمه ، وديوان شعره الذي نشر دون تحقيق علمي دقيق وأتيح لي أن أقف على نسخة خطية نادرة منه ترجع إلى عهد المؤلف ، وربما كانت بخطه الشخصي .

وكان الرأي أن هذا الديوان أولى آثار أسامة بالعناية وأن علّي أن أتخذ من تحقيقه ودرسه موضوعا لرسالة الدكتوراه ، ولكني كنت أرى رأيا آخر ، كنت قد دربت على الكتابة عن شخصية أدبية متنوعة المعارف ، كما كان العمل الشاق الذي صادفته في تحقيق كتاب العصا قد أكسبني القدرة على التصدي لتحقيق التراث ، وكانت وعورته الشديدة كفيلة بجعل التصدي لسواه رحلة يسيرة هينة فإن كنت طامحا بعد هذا إلى آفاق جديدة من علم أستاذي وخبراته فإن علّي أن أتخلى لحين عن درس الشخصية وتحقيق التراث لأقتحم في ظل إشرافه ميدانا جديدا هو ميدان درس الظاهرة الأدبية ، آملا أن يتاح لي إبراز عمل يقترب من عمله في مشكلة السرقات أو اتجاهات الشعر ، فقد أغلق بعمله فيها باب الاجتهاد في مضماريها أو كاد .

ولم تتح لي قوانين الجامعة التسجيل مع أستاذي في عاجل الحال ، إذ كانت جهوده العلمية معارة لجامعة الرياض ، وفي انتظار أوبته تحدثت رسائلنا عن

---

(١) نوقشت في ٢٨ نوفمبر ١٩٧٦ ، وكان موضوعها : « أسامة بن منقذ ، حياته وآثاره ، مع تحقيق كتاب العصا » أشرف عليها استاذي الجليل الدكتور محمد مصطفى هدارة ، وشارك في الحكم عليها أستاذاي الجليلان الدكتور طه الحاجري والدكتور حسن نصار ، ونالت تقدير ممتاز بإجماع الآراء ، وقد نشرت بعناية الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فصدر كتاب العصا سنة ١٩٧٨ وأعيد نشره سنة ١٩٨١ ، كما نشر القسم الأول من الدراسة سنة ١٩٨٠ ، والثاني سنة ١٩٨١ م

موضوعات عديدة ، أفضت إلى اختيار موضوع « النثر الفنى فى القرن السادس » الذى قيد فى أوائل اغسطس سنة ١٩٧٧ ، و بعد عام أو يزيد من العمل والقراءة حول الموضوع ، تجمع لدى ركام هائل من المادة المجموعة ، ومن خلال هذا الركام كانت أسئلة كثيرة عن « المقامات » تطل برأسها وتحوج الإجابة عنها إلى دراسة مستقلة متأنية ، ومن هنا اقتصرت على درس « فن المقامات فى القرن السادس » .

وليست هذه الدراسة أول مايكتب عن فن المقامات بعامة ، ولن تكون آخرما يكتب عنه ، فلقد سبقتها دراسات وبحوث ، إن لم تكن فى جملتها مقنعة ، فقد كان بعضها صادقا .

ويمكن أن نقسم هذه الدراسات إلى أربعة أقسام رئيسة على النسق التالى :

١ ــ كتب عامة تناولت المقامة فى جانب من درسها لكونها فنا أدبيا لا يصح إغفاله أو تجاوزه ، كما نرى فى كتب التاريخ الأدبى ، ومايجرى مجراها .

ونذكر هنا بوجه خاص كتاب الأدب فى ظل بنى بويه ، وقد حاول مؤلفه أن يربط بين ظاهرة الفاقة ومقامات البديع ، وكتاب الدكتور إحسان عباس الذى عنى بدرس تاريخ الأدب الأندلسى فى عصر الطوائف والمرابطين وأفرد جانبا منه لدرس المقامات الأندلسية ، فأبرز الكثير من نصوصها ، وتعرض لدرسها لأول مرة فوقع فى أسر آرائه كل من تناولوا المقامات الأندلسية من بعده .

ويمكن أن نضيف إلى هذا النوع تلك الدراسات التى عالجت موضوعات تقع قريبا من الفن المقامى أو تشمله ، ككتاب النثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك ، وكتاب القصة فى الأدب العربى القديم لعبد الملك مرتاض ، والأدب القصصى عند العرب لموسى سليمان ، الذى سلك المقامة فى باب القصص اللغوى .

ولاشك فى أن هذه الكتب فى جملتها لم تعن بالمقامات عناية خاصة ، وإنما كانت فى الغالب تشير إشارات سريعة إلى الأعمال المقامية البارزة ، ولاتكاد تتعدى البديع إلا إلى الحريرى .

(ب) ــ كتب درست المقامة من خلال عنايتها بأصحاب المقامات كما فعل

مارون عبود والدكتور مصطفى الشكعة حين درسا مقامات البديع من خلال درسهما لبديع الزمان ، وكما فعل مرتضى آية الله الشيرازى حين درس الزمخشرى فتحدث عن مقاماته .

وكما نرى فقد فاز البديع بأوفر حظ من هذه الدراسات ، التى لا تخلو من إعجاب بالرجل الذى عقد الكتاب حول آثاره .

ج- كتب وضعت أساسا للتعريف بفن المقامة :

ولعل أولها كتاب الرسائل والمقامات لعمر فروخ الذى صدر فى بيروت سنة ١٩٤٢ ، وهو كتيب صغير لا تحتل المقامة فيه عشرين صفحة ، ولعله كان مفيدا فى وقته ، ولكن أفكاره المدرسية القريبة صارت مما لا يعقد من أجله كتاب .

وفى العام التالى — ١٩٤٣ — جمع الدكتور جميل سلطان مجموعة من محاضراته المجمعية وأحاديثه الإذاعية فى كتاب سماه « فى القصة والمقامة » .

ثم وضع الدكتور شوقى ضيف كتابه الصغير عن المقامة الذى أخرجته دار المعارف فى سلسلة فنون الأدب العربى ، وهى سلسلة وضعت لتعريف عامة القراء بفنون الأدب ، وهذا الكتاب الذى طبع مرارا يتميز من سابقيه بأنه قصر مباحثه على المقامة ، وإن لم يختلف عنها فى كونه حاول بسط جناحيه على فن المقامة منذ نشأته إلى عصرنا الحديث ، فمال إلى التعريف الموجز أحيانا وإلى القفزات السريعة فى أحيان أخرى ، حتى نجده قد أجمل الحديث عن مقامات القرن السادس بعد الحريرى فى صحيفة واحدة .

ومن هذه الطائفة كتاب لم يتسن لى الاطلاع عليه وهو « فن المقامات فى الأدب العربى » لعبد الملك مرتاض ، الذى صدر فى الجزائر ، وهذه الدراسة ماثلة للطبع (٢) وقد أرسلت إلى الاستاذ اسطمبولى رباح نائب رئيس جامعة تيزى وزو الذى شرفت بلقائه فى مصر فى العام الماضى آملا الوقوف على الجديد عند عبدالملك مرتاض ، ومهما يكن من أمر فقد وقفت على دراسته عن القصة فى الأدب العربى القديم وقد أفرد جانبا كبيرا منها لدرس المقامات .

---

(٢) أشير إلى صدوره فى الجزائر بين الكتب الجديدة ، مجلة الفيصل السعودية فى عدد ٤١ ، ١٤٠٢ هـ — نوفمبر ١٩٨١ م

د) دراسات جامعية :

لقد نشطت فى الآونة الأخيرة الدراسات الجامعية حول المقامات.ومن هذه الدراسات رسائل لاتكاد تختلف عن الدراسات السابقة ، كما نرى فى رسالة يوسف نور عوض « فن المقامات بين المشرق والمغرب » التى قدمت لجامعة القاهرة ، ثم خرجت فى كتاب سنة ١٩٧٩ وحاول الباحث فيها أن يعرض للفن المقامى من خلال حديث سريع عن أصحابه ، وهى لا تختلف كثيرا عن رسالة الدكتور محمد رشدى حسن الذى اختار تطور فن المقامة موضوعا لرسالة الدكتوراه وحاول فيها أن يتحدث عن الفن المقامى منذ نشأته إلى عصرنا الحديث .

غير أن بعض هذه الدراسات قد اختار لنفسه موضوعا محددا أو إقليما بعينه كما نرى فى دراسة عبد الرءوف الخانجى الذى جعلها « درسا لفن المقامة والرسالة فى الاندلس » وإن كنا نرى أنه قد وزع جهده حين لم يقصر همه على درس المقامة وحدها .

ومن هذه الدراسات أيضا أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة للدكتور محمد رشدى حسن وهى فى أصلها رسالته الجامعية الأولى ، وقد تعرض فى أولها للمقامة العربية تعرضا سريعا ، ثم توقف عند المقامات المتأخرة كمقامات القواس والبربير والسيوطى ، وحاول أن يظهر ملامح تأثيرها فى بعض رواد الكتابة القصصية فى مصر .

ودراسة الزميل دياب فارس ديب عن لغة الحريرى فى المقامات ، وتكمن قيمتها الحقيقية فى أنها تصدت للنص وواجهته مواجهة مباشرة .

ومما تقدم نرى أن الجهود التى بذلت لدرس الفن المقامى كانت فى جملتها غير مقنعة وأغلبها محاولات سريعة للتعريف بأعلام هذا الفن ، فإن لم يكن لهذه الدراسة أن تدعى الريادة فى الكتابة عن المقامة ، فإن لها أن تدعى أنها أول دراسة تتصدى للفن المقامى فى فترة من أزهى فتراته هى القرن السادس الهجرى .

وربما كان الإقدام على هذه الدراسة الآن مبكرا ومحفوفا بالمخاطر فأكثر تراثنا فى هذا الفن العربى الأصيل مازال مطمورا أو ضائعا ، ولكنه من هذه الوجهة أيضا يحتفظ لنفسه بلون من الريادة .

وقد أتيح لهذه الدراسة أن تقف على نصوص مقامية لم تتح لغيرها ، فتناولتها بالدرس والتحليل حين اكتفت دراسات سابقة بالإشارة إليها أو أصدرت عليها أحكاما ظنية خاطئة . ومن هذه الأعمال مقامات ابن الجوزى التى حققها على محمد مهنا ونال بها درجة دكتور من جامعة الأزهر سنة ١٩٧٦ ، وإن كنا قد عاينا فيها وجوها من التصحيف والتحريف ، كما رأينا أن المحقق قد ادعى لنفسه الشروح التى وضعها المؤلف لمقاماته .

ومقامات السرقسطى التى حققها الزميل بدر احمد ضيف بإشراف أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدّارة ونال بها درجة دكتور فى الآداب من جامعة الاسكندرية .

ولكن الرحلة لم تكن دائما سهلة ميسرة فقد حاولنا ما استطعنا الوقوف على الأصول الخطية للمقامات التى لم يتح لها أن تنشر ، و يكفى هنا أن نشير الى مقامات ابن مارى التى أشار بروكلمان وجرجى زيدان إلى وجود مخطوطتها بين مقتنيات مكتبة فيينا ، وأرسلنا فى طلبها فإذا هى نسخة رائقة من مقامات الزمخشرى ، وأرسلنا إلى مكتبة بغداد فلم نجب إلى مطلبنا ، وأخيرا استطعنا بفضل الصداقة التى تربط أستاذنا الدكتور هدارة بالدكتور كمال نشأت الحصول على القسم الأخير من هذه المقامات ، وأرسلنا إلى الأستاذ محمد بهجة الأثرى الذى يتوفر منذ أمد على تحقيقها ، فوعد مشكورا بإرسال نسخة منها حين يتم طبعها .

ولعل إصرارنا على الوقوف على الآثار المقامية التى نتعرض لها بالحديث قد ظهرت نتائجه فى غير موضع من الدراسة ، ونشير هنا إلى مقامتين مشرقيتين أكثر القوم من تناقل الحديث عنهما باطمئنان بالغ دون أن يسعى أحدهم للوقوف عليهما ، أولاهما مقامة ابن نباتة التى لو صح وجودها لكان لصاحبها السبق على البديع ، وقد اتضح لنا بالدليل القاطع أنها من مقامات القرن السادس ، والأخرى مقامة الوطواط التى اتضح لنا بعد الوقوف عليها أنها بين رسائله المنشورة .

أما المقامة القرطبية أشهر المقامات العربية المفردة ، فقد كشفنا عن نصها لأول مرة ، و بينا كيف أسرف القوم على أنفسهم حين خلطوا بينها و بين غيرها من مقامات الفتح بن خاقان .

ومن الصعوبات الحقيقية التي واجهها هذا البحث ، التحقق من تراجم الرجال ووفياتهم ، وتواريخ إنجازهم لآثارهم المقامية خاصة في المغرب والأندلس حين تشح المصادر وتظل متابعة الرجال وربطهم بآخرين من معاصريهم أو بحوادث عصورهم رحلة مضنية لا مندوحة عنها للوقوف على زمن تقريبي لعصر كاتب أو آخر .

ولم يكن تحليل هذه المقامات ورصد اتجاهاتها المختلفة ومحاولة درس بنائها الفني والأدبي بمفهوم العصر ومقاييسه أقل صعوبة وتعقيدا .

ولقد أوجبت أسباب عديدة أن يخرج هذا العمل إلى جمهور القراء والدارسين في قسمين ، ومن ثم آثرت أن أفرد هذا القسم بما كتبت عن نشأة المقامة في ادبنا العربي ، وهو مبحث مستقل لاغنى عنه لمن يريد فهم طبيعة العمل الأدبي في القرن السادس ، بل لابد منه للدخول إلى عالم المقامة الأدبية بوجه عام .

ومهما يكن من أمر فحسب هذه الدراسة أنها اختارت فترة من أزهى فترات المقامة العربية ، وحاولت قدر الطاقة أن تقترب من نصوصها ، وأن تستكشف أسرارها في صبر وأناة ، ولعلها قدمت إجابات مقنعة عن عشرات من الأسئلة التي تتعلق بهذا الفن العربي الأصيل ، ولعلها أيضا قد طرحت عشرات أخرى من الأسئلة تنتظر باحثا أو باحثين قد يتاح لهم في وقت لاحق ما لم يتح لكاتب هذه السطور . و بالله التوفيق ،

الفصل الأول
المقامة بين الوضع اللغوى والمعنى الاصطلاحى

سمّى بديع الزمان كتابه المعروف « كتاب المقامات » ، ولم يترك لنا مقدمه يوضح فيها سبب هذه التسمية ، ولعله فعل ولكن هذه المقدمة ضاعت مع ماضاع من مقاماته .

وتدل كلمة « مقامة » ــ بفتح الميم (١) ــ واحدة المقامات فى الاستعمال العربى القديم على موضع القيام ، فهى مفعلة من القيام ، يقال مقام ومقامة كمكان ومكانة ، وهما فى الأصل اسمان لموضع القيام .

وتوسع العرب فى استعمال كلمة « مقامة » حتى استعملت استعمال المكان والمجلس (٢) ، و يظهر هذا الاستعمال جليا عند عدد من أقدم شعرائنا الجاهليين كقول بشامة بن الغدير (٣) :

وشربتُ بالقَعْب الصغيرِ وقادَني نَحْوَ المَقامة من بَنِيَّ الأَصْغَرُ

---

(١) ولا يصح نطقها بالضم ، « المُقامة بالضم الإقامة ، يقال أقام إقامة ومُقامة (كالمقام والمُقام) بالفتح والضم (وقد يكونان للموضع) لأنه إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم ، فإن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم لأنه مشبه ببنات الأربع نحو دحرج ، وهذا مدحرج . وقوله تعالى « لا مقام لكم » اى لا موضع لكم . وقرىء بالضم اى لا إقامة ، (تاج العروس قوم) . وفى معجم البلدان (مقام) : وقيل المقام موضع قدم القائم . والمقام بالضم . مصدر أقمت بالمكان مقاما وإقامة ، والمقام فى المسجد الحرام ، هو الحجر الذى قام عليه ابراهيم عليه السلام .

وقال الخفاجى : و يدل على أن المقام بالفتح اسم لمكان القيام . إبدال الجنات منه فى قوله تعالى : (إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون) والجنات أمكنة . والمقام بالضم الإقامة نفسها وكذلك المقامة بالضم . ومنه قوله تعالى (الذى أحلنا دار المقامة من فضله) ، وقال الجوهرى : يجوز أن يكون كل واحد منهما للمكان والفعل . شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل : ص ١٨٩ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ . وانظر أيضا تثقيف اللسان وتلقيح الجنان : لابن مكى الصقلى : ص ١٢٦ بتحقيق عبد العزيز مطر القاهره ١٩٦٦ . والحجة فى القراءات السبع لابن خالويه ص ٢٣٩ و٢٨٩ و٣٢٤ بتحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم . دار الشروق . الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .

(٢) مقامات الزمخشرى ١٠ القاهره مطبعة التوفيق . الطبعة الثانيه ١٣٢٥ هـ . وشفاء الغليل ١٨٩

(٣) كتاب العصا لأسامة بن منقذ ص ٣٩٥ بتحقيق حسن عباس . الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ الإسكندرية ــ الطبعة الثانية ١٩٨١

وقول نهشل بن حرى الدّارمى (٤) :

إنّا نظرنا فى المقامة مالكاً نظر المسافر أين ضوءُ الفرقد

وورد فى شعر عمرو بن قميئة (٥) حيث يقول :

لَعَمْرى لَنعمَ المْرء تدعُو بحَبْلِهِ إذا ما المُنادِى فى المَقامة نَدَّدا

وقول مالك بن حريم الهمدانى (٦) :

وأقبل إخوانُ الصَّفاء فأوضَعُوا إلى كلّ أحْوَى فى المَقامةِ أفْرعَا

وقول العباس بن مرداس السُّلَمِىّ (٧) :

فأيّى ماوأيُّك كان شرًّا فسيقَ إلى المقامةِ لايَراها

وعلى هذا النحو استعملها أيضا المسيّب بن علس مجموعة حيث يقول (٨) :

وكالمسك ترْب مقاماتهم وترب قُبورِهمُ أطيب

ومثله قول سلامة بن جندل (٩) :

يومان : يومُ مقامات وأنْدِيةِ يومُ سيرٍ إلى الأعداءِتَأوِيبُ

(٤) مقامات ... ص ١١ . وفى الأصل (حرى) تصحيف ظاهر .

(٥) ديوانه ص ، تحقيق حسن كامل الصيرفى ، القاهرة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الحادى عشر ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م

(٦) الأصمعيات . للأصمعى ، عبد الملك بن قريب ، الأصمعية ١٥ ص ٦٣ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م .

(٧) ديوانه ص ١٤٠١ جمعه وحققه الدكتور يحيى الجبورى ، بغداد ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م ، وديوان ... ص ١١٣ (صنعة ثعلب ، الهيئة العامة للكتاب ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م) . واللسان (قوم) ... فى المقامة ، وتاج العروس (قوم) وفيه : تعبد (تحريف ظاهر) .

(٨) ... ص ١١ وفيه (... عدس) بالمعجمة (تصحيف) وشعراء ...

١٩

(٩) المفضليات ... المفضلية ٢٢ ص ١٢٠

ومن هنا أطلقت على أهل المجلس، فيقال للجماعة يجتمعون فى مجلس مقامة، ومن ذلك قول لبيد (١٠):

وَمَقَامَةٍ غُلْبِ الرِّقابِ كَأَنَّهُمْ   جِنٌّ لَدَى بابِ الحَصِيرِ قِيَامُ (١١)
دَافَعْتُ خُطَّتَهَا وَكُنْتُ وَلِيُّهَا   إذ عَيَّ فَصْلَ جَوَابِهَا الحُكَّامُ

وقول القتال الكلابى (١٢):

نَشدتُ زياداً والمقامةُ بيننا   وذكّرتُه أرحام سعْد وهَيْثَمِ
فلما رأيتُ أنّه غيرَ مُنْتَهٍ   أمَلْتُ له كفِّى بِلَدْنٍ مقوَّم
ولما رأيتُ أنّنى قد قتلتُهُ   نَدِمْتُ عليه أىَّ ساعةَ مندمِ

والجمع « مقامات » كما فى قول زهير (١٣):

وفيهمْ مَقاماتٌ حِسانٌ وجوهُها   وأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُها القولُ والفعلُ
إن جئتَهم ألفيتَ حَوْلَ بيُوتِهم   مجالسَ قد يُشفَى بأحلامها الجَهْلُ
وإن قام منهم قائمٌ قال قاعدٌ   رشِدْتَ فلا غُرْمٌ عليك ولا خَذْلُ

---

(١٠) شرح ديوان لبيد ٢٩٠ حققه وقدم له الدكتور إحسان عباس، الكويت ١٩٦٢، ولسان العرب وتاج العروس (قوم).

(١١) فى الديوان: طرف الحصير، والمثبت من اللسان وتاج العروس، والحصير هاهنا: الملك.

(١٢) التذكرة السعدية فى الأشعار العربية: للعبيدى ص ٩٠ بتحقيق عبدالله الجبورى، بغداد ١٩٧٢ م.

(١٣) شرح ديوان زهير: ١١٣، والأول فى مقامات البديع ص ٤٧ بشرح الشيخ محمد عبده، بيروت المطبعة الكاثوليكية، الطبعة السابعة ١٩٧٣، و بعده:

على مُكثِريهمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهم   وَعِنْدَ المقِلِّينَ السَّماحَةُ والبَذْلُ

وانظر فى الأول أيضا: مقامات الزمخشرى ١١ ولسان العرب وتاج العروس (قوم) وشفاء الغليل: ١٨٩، وقد فرق بروكلمان بين قولى لبيد وزهير فقال انه عند زهير بمعنى مجلس القبيلة، وعند لبيد بمعنى الجماعة التى يضمها المجلس، ولا وجه لذلك، وقد تبعه فيه الدكتور شوقى ضيف (المقامة: ص ٧ القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة ١٩٧٣ م) والدكتور نبيه حجاب (بلاغة الكتاب فى العصر العباسى ص ١٠٥ — القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥).

وهذا جرى على السن العربي فى التعبير، قال مهلهل (١٤) :

نـبـئـت أن الـنـار بـعـدك أوقـدت   واسـتـبّ بـعـدك يـا كـليـب المجـلسُ

يعني أهل المجلس، وقد جاء فى الحديث الشريف من ذلك قوله : « وإن مجلس بني عوف ينظرون إليه »، أى أهل المجلس (١٥) . يقول الخفاجي (١٦) :

« ثم اتسعوا فى هذا المعنى حتى سمّوا مايقام به فيها من خطبة أو موعظة ونحوهما مقامة، فقالوا مقامات الخطباء، ومجالس القصاص، وهو مجاز باعتبار المجاورة والاتصال كتسمية السحاب سماء فى قوله تعالى : وأنزلنا من السماء ماء طهورا » .

وقريب من هذا قول ثعلب فى شرحه على بيت زهير (١٧) :

« و يقال : هو مقامة قومه إذا كان يقوم فيتكلم فى الحضّ على المعروف » وهذا يفسر لنا قول الجاحظ أن سليمان بن دواد عليه السلام اتخذ العصا « لخطبته وموعظته، ومقاماته، وطول صلاته » (١٨)، وماصنعه ابن قتيبة حين عقد فصلا فى كتابه عيون الأخبار سماه « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » أورد فيه بعض ما أثر عن أصحاب الرأى والشجاعة من الزهاد فى الرد على الملوك والخلفاء وزجرهم عن اتباع الأهواء (١٩)، وعلى هذا النحو أيضا يمكننا تفسير قوله فى صدر

---

(١٤) مقامات الزمخشرى : ١١، وشفاء الغليل ١٨٩

(١٥) شفاء الغليل : ١٨٩

(١٦) شفاء الغليل : ١٨٩ وانظر مقامات الزمخشرى ص ١١

(١٧) شرح ديوان زهير : ١١٣

(١٨) البيان والتبين للجاحظ : ٣/ ٣٠ بتحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، الطبعة الثانية ١٩٦١ م . وقد نقل عنه أسامة بن منقذ هذا القول فى كتابه « العصا » ص ٢٩٢

(١٩) عيون الأخبار لابن قتيبه : ٢/ ٣٣٣ — ٣٤٤، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٣، ثم تلاه باب المواعظ، وقد حذا ابن عبد ربه الأندلسي حذوه فى العقد حين أفرد جانبا كبيرا من كتاب الزمردة فى المواعظ والزهد لما سماه (مقامات العباد عند الخلفاء)، راجع العقد الفريد ٣/ ١٥٨ — ١٦٥، تحقيق أحمد أمين وآخرين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف ١٩٤٩ .

كتابه الشعر والشعراء (٢٠) :

« وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ، و يستصعب فيها ريّضه ، وكذلك الكلام المنثور فى الرسائل والمقامات والجوابات ، فقد يتعذر على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب ، ولا يعرف لذلك سبب ..... »

ولكننا لا نستطيع أن نفهم من ذلك ، او من قول ابن عبد ربه الأندلسى فى كتابه العقد (٢١) :

« فتصفح من رسائل المتقدمين مايعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين مايرجع إليه ، ومن نوادر الكلام ماتستعين به ، ومن الأشعار والأخبار والسير والأسمار مايتسع به منطقك ، و يطول به قلمك ، وانظر فى كتب المقامات والخطب » .

ان المقامات الأدبية بمعناها المعروف قد ظهرت قبل عهد بديع الزمان كما يرى أنيس المقدسى (٢٢) ، وإنما نفهم من هذه الكلمة التى وردت عند ابن عبد ربه ، والتى تشهد ألفاظها أنه نقلها فى جملة كلام طويل عن إبراهيم بن المدبر فى نصائحه للشادين من الأدباء والكتاب ، التى يرد فى جملتها قوله (٢٣) :

« فتصفح من رسائل المتقدمين ماتعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ماترجع إليه فى تلقيح ذهنك ، واستنجاح بلاغتك ، ومن نوادر كلام الناس ماتستعين به ، ومن الأشعار والأخبار ، والسير والأسمار ، مايتسع به منطقك ، و يعذب به لسانك ، و يطول به قلمك ، وانظر فى كتب المقامات والخطب » .

---

(٢٠) . الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١/ ٨٠ بتحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ م .

(٢١) العقد الفريد : ٤/ ١٧٥

(٢٢) تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى لأنيس المقدسى ، ص ٣٦١ ، بيروت الطبعة الرابعة ١٩٦٨ ، وقد رأى أنيس المقدسى أنه من كلام بريد بن عبدالله لكاتبه ، وهو وهم لايؤيده السياق ، و يرى زكى مبارك أن المقامات فى كلام ابن المدبر قد تكون جمع مقام بالتذكير وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل فى حضرة الخليفة أو الملك ، (النثر الفنى ١/ ٢٤٥) ولا فرق فى معناها مذكرة او مؤنثة .

(٢٣) الرسالة العذراء : لابراهيم بن المدبر ص ٧ بتحقيق وشرح الدكتور زكى مبارك ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ .

ان المقامات بمعناها المعروف عند ابن قتيبة قد دونت فى كتب تختص بها ، أو ضمن كتب الخطب ، ولا يبعد أن تكون الاشارة فى قول ابراهيم بن المدبر إلى كتب المجالس والأمالى ، أما المقامات الأدبية بالمعنى الذى نعرفه اليوم فلم تعرف حتى طلع بديع الزمان الهمذانى على الناس فى القرن الرابع الهجرى ، بفنه الأدبى المعروف الذى اختار له هذه التسمية ، وبهذا وضع لكلمة المقامات معنى اصطلاحيا لم يستعمل من قبل ، ولقد فطن الى هذا الخفاجى حيث يقول (٢٤) :

« مقامة ، واحدة المقامات بفتح الميم ــ المعروفة فى صناعة الأدباء والوعاظ مولدة محدثة لم تقع فى كلام أحد من المتقدمين لكن لها وجه من المجاز »

وقد دعانى إلى هذا العرض السريع للوضع اللغوى والمعنى الاصطلاحى لكلمة « مقامة » وإن لم يكن من هموم هذا البحث أن فريقا من الباحثين شغلتهم هذه التسمية فحاولوا أن يجدوا لها تعليلا مقبولا ولكن التوفيق جانبهم فى كثير من الاحيان .

ولعل بروكلمان (٢٥) أول من حاول تتبع معنى كلمة مقامة وتطورها منذ العصر الجاهلى إلى عصر بديع الزمان ، وهذه المحاولة مشروعة فى لغات أوربية كثيرة حيث توجد معاجم تؤرخ للتطور المعنوى لكلماتها ، ولكنها فى لغتنا العربية تصبح محاولة محفوفة بالمخاطر لفقدان مثل هذه المعاجم ولضياع كثير من النصوص القديمة التى يمكن أن تعين عليها ولاستعجام كثير منها حين تعوز الإجابة عن تساؤلات الباحثين .

ولقد رأى بروكلمان أن الجاهليين استعملوا كلمة « مقامة » بمعنيين فى آن واحد ، أولهما مجلس القبيلة ، أو ناديها ، واستشهد على ذلك بقول زهير المتقدم والآخر بمعنى الجماعة التى تؤلف هذا المجلس كما ورد فى شعر لبيد .

ونحن نوافق بروكلمان على أن العرب استعملوا الكلمة للدلالة على المعنيين معا ولكننا لانوافقه على ماذهب إليه من الاستشهاد بقول زهير على المعنى الأول ، فالكلمة فى بيت زهير أيضا تدل على القوم المجتمعين تماما كما استعملها لبيد ،

---

(٢٤) شفاء العليل ١٨٩

(٢٥) The Encyclopaedia of Islam 3 161 (Makama)

[illegible] الأدب [illegible] ٣٦٢

وكل ماهنالك من فرق أن زهيرا استعمل الكلمة مجموعة ، بينما استعملها لبيد مفردة ، وقد أوردنا نحن أمثلة ظاهرة على استعمالها بمعنى المجلس فى شعر بشامة بن الغدير والمسيب بن علس وغيرهما .

و يرى بروكلمان أن مفهوم الكلمة قد تطور بتطور الحياة واتخذت سمتا دينيا فصارت تعنى مجلسا يقوم فيه شخص بين يدى الخليفة ، أو الأمير حيث يلقى خطبة وعظية ثم صارت تقرن بالشعر والأخبار الأدبية وذكر الوقائع والأيام فصارت تستعمل بمعنى المحاضرة ، ولكنها فى القرن التاسع تهبط من مستواها الرفيع إلى مستوى الكدية والاستجداء بلغة مختارة .

وقد بينا من قبل أن العرب قد توسعوا فى معنى الكلمة حتى سموا مايدور فى هذه المجالس من خطب ومواعظ وغيرها مقامات ، ومن ثم لانرى أن هناك هبوطا أو ارتفاعا فى معنى الكلمة . وكل ماهنالك أن الكلمة أصبحت تدل دلالة اصطلاحية خاصة على نوع من النشاط الأدبى .

ولم يقلل من شأن الكلمة أن أدار البديع مقاماته هذه على الكدية وجعل من بطلها أفاقا محتالا ، ولا أدل على ذلك من أن كلمة « مقامة » ظلت مقترنة بهذا الضرب من النشاط الأدبى . وإن كان محوره بعيدا عن معنى الكدية الذى اختاره البديع كما هو الحال فى مقامات الغزل والمدح والهجاء والمناظرة وغيرها . . .

وأرى أنه إنما اختار هذه التسمية لمقولاته تلك لأنه اختار بطل حكاياته من المكدين الذين يأتون المجالس والمقامات للاحتيال على أهلها بما يملكون من لسن وفصاحة

ومما ألاحظه ان البديع كان حريصا عند الحديث عن مقاماته هذه — وقد جاء مرتين فى رسائله — أن يذكر أنها مقامات الكدية ([26]) وكأنه بهذا المعنى يفرق بين هذه المقامات وغيرها ، ولا ذنب له حين استهوى موضوع مقاماته من أنشأوا مقامات أدبية من بعده .

ولا شك عندى فى أن الكلمة ظلت حية سواء بمعانيها القديمة ام بمعانيها الاصطلاحية الأخرى إلى جوار المعنى الاصطلاحى الأدبى الذى خلعه عليها البديع .

---

(٢٦) رسائل بديع الزمان ٢٣١ ، ٣١٥ ، القاهرة مطبعة هندية ، الطبعة الرابعة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨

فقد وضع الغزالى كتابه « مقامات العلماء بين يدى الخلفاء والامراء » (٢٧) وهو خلافا لما ظن بلاشير وغيره (٢٨) من أنه مقامات أدبية يستعمل كلمة « المقامات » بمعنى الموعظة تقال فى مجلس على نحو ما نجد عند ابن قتيبة .

بل وضع أيضا بالفارسية « كلمات در تقرير مقامات » (٢٩) وهو هنا يستعمل الكلمة بمعناها الاصطلاحى عند الصوفية ، وهو بمعنى الرتب أو المنازل ، وقد رتب كتابه هذا على ثمانية أبواب هى : علم التوحيد والمعرفة والحال والمعاملات والمكاشفات والخطاب والسماع والوجد ، وهو بذلك لا يقع بعيدا عما فعل أبو عبد الرحمن السلمى (٤١٢ هـ) قبله حين وضع كتابه « مقامات الأولياء » (٣٠) .

ولا يزال مصطلح « المقامات » معروفا عند الصوفية حتى يومنا هذا ، وفى كتاب التعريفات للشريف الجرجانى (٣١) :

« المقام فى اصطلاح أهل الحقيقة عبارة عما يوصل إليه بنوع تصرّف ، و يتحقق به بضرب تطلّب ومقامات تكلّف ، فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك » .

و يقول فى موضع آخر (٣٢) :

« وأما المقام عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام »

---

(٢٧) مؤلفات الغزالى لعبد الرحمن بدوى ص ٢٥٩ ، الكويت ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .

(٢٨) انظر بديعات الزمان ، فكتور الكك ص ١٣٠ (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦١ م) ، ورأى فى المقامات : الدكتور عبد الرحمن ياغى ص ٣٣ ، بيروت المكتب التجارى ، الطبعة الأولى ١٩٦٩ م .

(٢٩) مؤلفات الغزالى : ٣٦٤

(٣٠) طبقات الصوفية : لأبى عبد الرحمن السلمى ، المقدمة ص ٤١ تحقيق نور الدين شريبه ، القاهرة ، مطبعة دار التأليف ، الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م

(٣١) على بن محمد السيد الشريف الجرجانى (٧٤٠ — ٨١٦ هـ) ص ٢٤٤ ، بيروت مكتبة لبنان ١٩٦٩ م

(٣٢) التعريفات ٢٠٨٥

ولقد أكثر الخوانسارى النقل عن كتاب المقامات لنعمة الله بن عبد الله الجزائرى ، وقال عنه (٣٣) :

« ... وكتاب مقامات النجاة « فى شرح أسماء الله الحسنى بترتيب حروف الهجاء بلغ فيه الى آخر حرف الضاد المعجمة ، ثم تركه كما أفيد بأمر مولانا المجلسى بذلك لكثرة ماأودعه فيه من الأشعار العرفانية وال... الوجدانية ، وان كان فيه كثير من المطالب الطريفة والفوائد الشريفة التى ... غيره ، و يوجد عنه النقل فى درج كتابنا هذا كثيرا » .

وعلى حين نجد صاحب الطالع السعيد يورد لابن دقيق العيد فى ابن الجوزى قوله (٣٤) :

دقَّقت فى الفطنة حتَّى لقد أبديت ما يسحرُ أو يسبى
وصرت فى أعلى مقاماتها حيث يراك الناسُ كالشُّهْب

نجد الاربلى فى رسالة الطيف ... ى على بن أبى طالب (٣٥) :

سل عن ترانى مقامات عرفى به شدت عرى الدين فى حلّ ومرتحل
بدرا وأحدا وسل عنه هوازن فى أوطاس واسأل به فى وقعة الجمل

فقد استعملها ابن دقيق العيد كما تعرف فى اصطلاح أهل التصوف ، ثم جاء الإربلى واستعملها كما عرفت فى الاستعمال العربى القديم .

---

(٣٣) روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات : الخوانسارى ٨/١٥٣ بتحقيق أسد الله اسماعيليان ، طهران ١٣٩٠ هـ . وانظر ١٧/٦ ، ٣١ ، ٣٢ و ٥٤ ، ٧٥ ، ٩٨ ، ١٦٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ١٧٣/٨ وغيرها ، وانظر أيضا ابن الخطيب حيث ذكر لمعاصره محمد بن عياش كتاب « مارأيت ومارثى لى من المقامات » الإحاطة ١٤١/٢ بتحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة مكتبة الخانجى ١٩٧٣ م — ١٩٧٧ م .

(٣٤) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد : للإدفوى ص ٥٩٣ بتحقيق سعد محمد حسن ، القاهرة ١٩٦٦ وانظر أيضا ص ٢٤٥ حيث قال فى ترجمة رفاعة بن أحمد القنائى : « يذكر مع أرباب المقامات وتنقل عنه الكرامات » .

(٣٥) رسالة الطيف للإربلى : ٢٩ بتحقيق عبد الله الجبورى ، بغداد ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨

والذى نريد أن نخرج به من هذا كله أن كلمة « مقامات » ظلت حية بمعناها الاصطلاحى عند الأدباء وعند أهل التصوف ولكن معناها الوضعى ظل موجودا ومستعملا أيضا ، وعلى هذا النحو يستعملها رجل من رجال القرن الرابع هو أبو المطهر الأزدى صاحب حكاية أبى القاسم البغدادى ، إذ يقول فى صدر كتابه :

« أسفار لنفسى دونتها ، ورسائل سيرتها ، ومقامات حضرتها »

بل إن البديع نفسه قد استعملها على هذا النحو حين قال فى بعض رسائله إلى وزير الرى (٣٦) :

« مواقف خدمته مشهورة ، ومقاماته مشكورة »

وبهذا المعنى استعملها ابن الأثير حين رأى ان الصفة تأتى فى الكلام على ضربين ، إما للتأكيد والتخصيص ، وإما للمدح والذم ، ثم عقب على ذلك بقوله (٣٧) :

« وكلاهما من مقامات الإسهاب والتطويل ، لا من مقامات الإيجاز والاختصار » وبمعنى المجلس أيضا يستعملها ياقوت الحموى فى القرن السابع حين يقول نقلا عن الثعالبى فى حديثه عن الخوارزمى (٣٨) :

« فلما تصدى الهمذانى لمباراته وجرت بينهما مقامات ومبادهات ومناظرات وغلب قوم هذا وغلب آخرون ذاك ، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق »

ومع هذا فقد تركت محاولة بروكلمان أثرها فيمن أتوا بعده ، فمنهم من اكتفى بترديد كلامه معفيا نفسه من عناء البحث (٣٩) ، ومنهم من أراد أن يتمثل كلامه

---

(٣٦) رسائل البديع : ١٦٩

(٣٧) المثل السائر : لضياء الدين بن الأثير : ٢/ ٣١٢ تحقيق الدكتور أحمد الحوفى والدكتور بدوى طبانة ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢م .

(٣٨) معجم الأدباء لياقوت : ٢/ ١٦٦ نشر د . أحمد فريد رفاعى ــ مطبعة دار المأمون ١٩٣٦ ــ ١٩٣٨م .

(٣٩) محمود غناوى الزهيرى : الأدب فى ظل بنى بويه : ٢٢٣ ، القاهرة مطبعة الامانة ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩م ، حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربى ٧٣٩ ، دكتور شوقى ضيف المقامة ٧٠

ويخرج به علينا فى ثوب جديد فجانبه التوفيق كما فعل جورج غر يب حين ظن أن للمقامة تعر يفا خاصا بكل عصر (٤٠) .

أما أنيس المقدسى فقد ذهب بعيدا حين استنبط مما جاء عند ابن قتيبة وابن عبدر به أن المقامات الأدبية كانت موجودة قبل عصريهما (٤١) ، وفى هذا ما فيه من خلط ، فهذه الأقوال تطلعنا على تطور مدلول كلمة « مقامة » ولكنها لاتطلعنا بحال على نشأة فن المقامة كما ير يد أنيس المقدسى أن يستنبط بليّ عنق النص .

فإذا انتهينا إلى الدكتور مصطفى الشكعة وجدناه يجهد نفسه للتحرر من أسر بروكلمان فى محاولة طو يلة لاستنطاق النصوص ، ولكنها لم تفض إليه بشىء ، فعلى حين ينكر على Huart و بروكلمان أن تكون كلمة « مقامات » كما وردت عند المسعودى بمعنى محاضرات ، و يرى من الأنسب أن تكون بمعنى « مواعظ » نراه يرى لها هذا المعنى كما وردت فى بخلاء الجاحظ (٤٢) :

وحين تستعجم عليه النصوص فلا يكاد يخرج منها بمعنى محدد ، فتعطيه أكثر من معنى ظنى لا يستطيع أن يغلب واحدا منها (٤٣) يفزع إلى مقامات البديع فيقول :

« و بديع الزمان نفسه يستعمل المقامة بمعنى المجلس ، قال فى المقامة الوعظية : قال عيسى بن هشام : فقلت لبعض الحاضر ين من هذا ؟ قال : غر يب قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه إلى آخر مقامته لعله ينبىء بعلامته (٤٤) »

و واضح أن الدكتور مصطفى الشكعة قد جانبه التوفيق فى هذا الاستنباط البعيد ، فلا شك أن البديع أراد بكلمة المقامة هنا الموعظة كما هو ظاهر من عنوان المقامة ، والبديع يبدأ مقامته بقوله :

---

(٤٠) العصر العباسى : نماذج نثر يه محللة : ١١٠ ، بيروت ، دار الثقافة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ م .

(٤١) تطور الأساليب النثر ية : ٣٦١

(٤٢) بديع الزمان : للدكتور مصطفى الشكعة ٢٠٤ ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٩ ، وراجع : Huart: Litterature Arabe. P. 134

(٤٣) راجع بديع الزمان : ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٤٤) بديع الزمان ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، وانظر مقامات البديع : ١٣٦

« حدثنا عيسى بن هشام قال : بينا أنا بالبصرة أميس حتى أداني السير إلى فرضة قد كثر فيها قوم على قائم يعظهم ، وهو يقول : أيها الناس ، إنكم لم تتركوا سدى ، وإن مع اليوم غدا ..... »

وتنتظم هذه الخطبة جل المقامة ، و يظهر معنى الموعظة أيضا فى قوله :

« ... فاصبر عليه إلى آخر مقامته لعله ينبىء بعلامته ، فصبرت ، فقال : زينوا العلم بالعمل ، واشكروا القدرة بالعفو ، وخذوا الصفو ودعوا الكدر يغفر الله لى ولكم .... »

وعلى هذا النحو يطرد استعمال كلمة « مقامة » فى المقامات الأدبية نفسها ، فهى إما دالة على المعنى الاصطلاحى للمقامات الأدبية ، وإما دالة على المعنى الوضعى للكلمة بمعنى المجلس ، أو المجازى فتدل على ما يقال فى هذا المجلس من عظة وخطبة ونحوها [٤٥] .

وممن اختلطت عليهم الأمور فى فهم معنى المقامة عبد الرحمن ياغى ، فإنه بعد أن تابع بروكلمان وأورد كلامه ، عاد ليربط بين معنى المقامة وفكرة الهجاء ربطا غريبا يبدو واضحا فى قوله [٤٦] :

« وقيمة هذه الدلالات أنها تشير إلى جانب مادى ذى بال فى الاصل الأول للمقامة ، وهو الذى يشير إلى مواقف المهاجاة ، أو الخصومة ، أو المفاخرة ولاسيما بالقول ، وهذا التهاجى ، أو التساب أو التخاصم ، سواء منه ما كان جادا أو ما كان رياضة تعبيرية فى سبيل هدف آخر ، ان يجرى أمام ملأ من الناس يشاهدونه ، و يشهدون لمن يتم النصر فيه »

ولم يكتف ياغى بهذا الربط الغريب بين معنى المقامة وفكرة التهاجى ، فبعدما ورد عند ابن قتيبة من « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » معدودا فى جملة

(٤٥) راجع مقامات البديع : الأسدية ٢٩ ، الوعظية ١٣٦ ، الرصافية ١٥٩ ، ومقامات الحريرى . المقدمة ، التفليسيه ، المروية ، البصرية ، ومقامات الحنفى : ٢٤ ، ٢٩ ، ٥٨ ، ١٠٠ (استانبول : مطبعة أحمد كامل ١٣٣١ هـ) ، ومقامات ابن الجوزى : (خط : بتحقيق على حسين على مهنا : لغة الأزهر ١٩٧٦ م) ٤٥٢ ، ٥٧٤ ، والمقامات الزينية (خط ـ بتحقيق عباس مصطفى الصالحى ـ دار العلوم ١٩٧٣ م) ص ٥٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ و ٢٩٦

(٤٦) رأى فى المقامات ٢٠

الأعمال المقامية ، بل رأى أنها تختلف عن الموعظة الخالصة وأنها تنطوى على بذور قصصية (٤٧) .

وهو فى هذا لايبعد كثيرا عما فعل الدكتور محمد رشدى حسن ، حين ضم إلى المقامات الأدبية ماليس منها كمقامات الزهاد والوعاظ التى ترد عند ابن قتيبة وابن عبدربه والغزالى ، وجعلها حلقات فى تطور الفن المقامى (٤٨) .

وقد تبعهما فى ذلك الدكتور يوسف نور عوض ، وهذا كله خلط لفهم المقامات الأدبية بمعناها الاصطلاحى بغيرها (٤٩) ، ومن هنا أرى القلقشندى أبصر منهم بفهم معنى المقامة حين عرف المقامات بقوله (٥٠) .

« وهى جمع مَقامة بفتح الميم ، وهى فى أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس ، وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة ، كأنها تذكر فى مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها .... »

أما « بهار » فقد حاول أن يهرب من أسر بروكلمان فخرج علينا برأى غريب إذ انكر ان تكون كلمة « المقامات » راجعة لأصل عربى ولكنها ترجمة للفظة الفارسية « كاثه » أو « كَاس » أو « كَاه » اسم لتراتيل وألحان دينية من الديانة الزردشتية وحاول أن يربط بين هذا الأصل الفارسى والاستعمال العربى على أساس أن احد معانى لفظه « مقام » فى إيران : النغمة الموسيقية ، وأنه يتصور أن الزهاد كانوا يتلون أحاديثهم بحضرة الخلفاء والأمراء بترتيل وتنغيم خاص ، والمقامات كذلك تقوم على أساس موسيقى بما تشتمل عليه من أسجاع وأشعار مطربة (٥١) .

---

(٤٧) رأى فى المقامات : ٢٨ ، ٢٩

(٤٨) تطور فن المقامة : ٢ ــ ٨ ، ١٠٢ ــ ١٠٤ (رسالة دكتوراه مخطوطة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٦٠م) .

(٤٩) فن المقامات بين المشرق والمغرب : ٧١ (بيروت ، دار العلم ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م) .

(٥٠) صبح الأعشى : ١١٠/١٠ ، (القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م) .

(٥١) سبك شناسى . لمحمد تقى بهار ، ٣٢٤/٢ ، ٣٢٥ طهران ١٣٣١هـ وبعد فى هذا مصحح مقامات حميدى : المقدمة ١٩ وانظر مقامه نويسى در ادب فارسى للدكتور فارس إبراهيمى حريرى ١٨ ، طهران ١٣٤٦هـ

وأحسب أن مثل هذا الرأى الذى لاتدفع إلى مثله إلا روح التعصب الكريه أو الجهل الفاضح لايحتاج منا إلى رد .

على أن « بهار » نفسه كفانا مؤونة الرد حين قال فى الصفحة التالية :

« يكاد يكون من المرجح أن لفظة (مقامة) من اختراع بديع الزمان إذ أن كل اختراع فى الأدب العربى كان يجد له صدى فى الفارسية » . (٥٢)

---

(٥٢) سبك شناسى . ٢ ، ٣٢٦ . وانظر مقامات حميد الله (خط) : ٧

الفصل الثانى

نشأة المقامة

لا اختلاف على أن نشأة المقامات الأدبية كانت مشرقية ، وأما الذى لا اتفاق عليه فهو زمن هذه النشأة وصاحب الفضل فيها ، ومهما يكن من شأن الاختلاف حول منشىء المقامات فإنه يدور حول ثلاثة أسماء كبيرة فى تاريخ تراثنا الأدبى والفكرى ، عاش أصحابها بين القرنين الثالث والرابع وهم : بديع الزمان ، وابن دريد ، وابن فارس .

ولقد كان بديع الزمان أول من أطلق اسم المقامات على عمل أدبى من إنشائه وقد لاقت مقاماته قبولا فى نفوس معاصريه ، حتى نرى أبابكر الخوارزمى حين أراد الانتقاص من قدره لم يملك إلا أن يقول إنه لا يحسن سواها وأنه يقف عند منتهاها (١) .

وبالرغم من أن البديع كان شديد التبجح بما صادفه من توفيق فى وضع هذه المقامات ، شديد الإلحاح فى دعوة الخوارزمى إلى إنشاء عشر مقامات على غرارها عبثا به واستطالة عليه فإنه لم يدع لنفسه شرف ابتكار هذا الفن .

ويبدو أن الحريرى هو أول من ادعى له ذلك كما يظهر من قوله فى مقدمة مقاماته :

« فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان ، رحمه الله تعالى ، وعزا إلى أبى الفتح الإسكندرى نشأتها ، وإلى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لايُعرف ونكرة لاتَتَعرف ، فأشار من إشارته حكم وطاعته غنم ، إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو الدبيع وإن لم يدرك الظَّالِع شأو الضَّلِيع .... »

وقـــوله :

« .. هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سبَّاق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدى بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتى بلاغة قُدامة ، لايغترف إلاَّ من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته . ولله در القائل :

(١) سائل البديع : ٢٣٧

فلو قبلَ مبْكاها بَكَيْتُ صبابةً بسُعدَى شَفيتُ النفس قبلَ التندُّمِ
ولكنْ بكتْ قبلى فهيَّجَ لى البُكا بُكاها فقلتُ : الفضلُ للمتقدِّمِ »

ترى ماذا يعنى الحريرى بابتداع البديع ؟ هل يعنى أنه ابتدع فن المقامة ابتداعا ؟ أو يعنى أنه ابتدع ما أنشأ فى هذا الفن ؟

وإذا كنا نخادع أنفسنا فيما جاء من كلام الحريرى فإن أكثر من تصدوا للحديث عن نشأة المقامات أمنوا عليه وأظهروه فى ألفاظ صريحة وربما استقوا ذلك من كلام الحريرى نفسه انسياقا وراء ظاهر لفظه ، فابن خلكان يقول فى ترجمة البديع (٢) :

« ... صاحب الرسائل الرائعة ، والمقامات الفائقة ، وعلى منواله نسج الحريرى مقاماته ، واحتذى حذوه واقتفى أثره ، واعترف فى خطبته بفضله وأنه الذى أرشده إلى سلوك ذلك المنهج .... »

وابن حجة يقول فى معرض حديثه عن البديع (٣) :

« وهذا الإمام المتقدم الذى صلى الحريرى خلفه وأشار إليه بقوله فى مقاماته :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

فإن البديع هو الذى سبق الحريرى إلى نظم المقامات وسبك العلوم فى تلك القوالب الغريبة وعلى منواله نسج الحريرى واستعمل بعض أسماء مقاماته وقفى أثر عيسى بن هشام بالحارث بن همام وعارض طرح الإسكندرى بما نسجه أبو زيد السروجى ، وعلى كل تقدير فالبديع غرابة هذه الراية ، وعباس هذه السقاية .... »

(٢) وفيات الأعيان : لابن خلكان ١/١٢٧ بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت دار الثقافة .

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب : لابن حجة ص١٣٢ ، القاهرة ، الطبعة الخيرية الطبعة الأولى سنة ١٣٠٤ هـ .

وأظهر من هذا قول القلقشندى : (٤)

« واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات ، علامة الدهر ، وإمام الأدب البديع الهمذانى » .

وقول الخفاجى (٥) :

« وأول من اخترع هذا البديع الهمذانى وتابعه الحريرى والزمخشرى والفضل للمتقدم :

« وما قصبات السبق إلا لمعبد »

ولقد يبدو هذا التواتر مضافا إلى إعتراف الحريرى كافيا للاقناع بسبق البديع ، غير أن كاتبا عربيا ألصق بعصر البديع من هؤلاء جميعا ، ولم يتح له الاطلاع على مقدمة الحريرى لأنه أقرب منه بالبديع عهدا هو « الحصرى القيروانى » له رأى يختلف اختلافا كبيرا عن هذه الآراء أودعه كتاب زهر الآداب (٦) حيث يقول فى حق البديع (٧) :

« ... وهذا اسم وافق مسّماه ، ولفظ طابق معناه ، وكلام غضّ المكاسر أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفا ، والهوى يعشقه ظرفا ، ولما رأى أبابكر محمد بن (الحسن) (٨) بن دريد الازدى أغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، وانتخبها (٩) من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها (١٠) للأفكار والضمائر ، فى معارض حوشية وألفاظ

---

(٤) صبح الأعشى : ١٤/ ١١٠

(٥) شفاء الغليل : ١٨٩

(٦) قال القاضى الرشيد بن الزبير فى كتاب « الجنان » أنه ألف زهر الآداب فى سنة خمس وأربعمائة . وفيات الأعيان : ١/ ٥٥ .

(٧) زهر الآداب : للحصرى ١/ ٣٠٥ بتحقيق الدكتور زكى مبارك ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م ، ونقله عنه الكلاعى فى إحكام صنعة الكلام ١٢٠ تحقيق محمد رضوان الداية ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٦ ، و ياقوت فى معجم الأدباء ٢/ ١٦٩ .

(٨) فى زهر الآداب : الحسين ، والتصويب من معجم الأدباء

(٩) فى زهر الآداب : واستنخبها ، والتصويب من معجم الأدباء ، وفى الإحكام : وأنتجها .

(١٠) [illegible]

غنجية(١١) ، فجاء أكثر ما أظهر(١٢) تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجب(١٣) الأسماع ، وتوسع فيها ، اذ صرّف ألفاظها ومعانيها(١٤) في وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة(١٥) عارضة(١٦) بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى(١٧) ، وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الإسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدرّ ، ويتنافثان السحر في معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع(١٨) منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما أفرد بعضها(١٩) بالحكاية ، وخص أحدهما بالرواية ... »

ولم يكن الدكتور زكى مبارك أول من وقف على هذا النص كما يدعى في كتابه « النثر الفنى »(٢٠) ، فقد سبقه إليه المستعرب الألماني بروكلمان الذى أشار إليه في هدوء(٢١)

---

(١١) في زهر الآداب : في معارض عجمية وألفاظ حوشية ، وفي معجم الأدباء : في معارض حوشية ، وألفاظ عنجهية ، والمثبت من إحكام صنعة الكلام .

(١٢) في معجم الأدباء : فجاء أكثرها

(١٣) في زهر الآداب : حجبها ، والمثبت من الإحكام ومعجم الأدباء

(١٤) لم ترد في معجم الأدباء

(١٥) في معجم الأدباء : منصرفة

(١٦) في زهر الآداب : عارضها ، والمثبت من الإحكام ومعجم الأدباء

(١٧) في الإحكام : ومعنى

(١٨) معجم الأدباء : وتطالع

(١٩) زهر الآداب : أحدهما ، والمثبت من معجم الأدباء

(٢٠) النثر الفنى : ١/ ٣٠٣ ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، وانظر ١/ ٢٤٥ ج ٣ حيث يقول : « ولم يكن أحد نبه إلى قصة النص الذى نقلته آنفا عن زهر الآداب ووصلت منه الى نشأة فن المقامات ، وقد اتفق أن المسيو ديموميين وجه نظرى أخيرا إلى اشارة وردت في دائرة المعارف تدل على ان المسيو بروكلمان نبه الى ذلك النص »

(٢١) Fncyclopaedia of Islam 3 162: A- B

وانظر تاريخ الأدب العربى (معرب) ٢/ ١٨٤

ولكن الدكتور زكي مبارك تلقف هذا النص وعرضه على أستاذه المسيو مرسيه في باريس ثم عاد إلى القاهرة بعد أن أعياه البحث عن « أحاديث ابن دريد » المذكورة فلم يوفق إليها ، ليعرضه على الدكتور طه حسين الذي أشار عليه بمراجعة أمالي القالي تلميذ ابن دريد لعله يجد هذه الأحاديث بين الأخبار التي رواها القالي عن أستاذه وهرع الدكتور زكي مبارك إلى صفحات الأمالي يقلبها فوجد بينها أخبارا يرويها القالي عن شيخه ابن دريد يلوح عليها الطابع القصصي فوقر في ذهنه أنها الأحاديث التي ابتكرها ابن دريد وأشار إليها الحصري .

وبطريقة أو بأخرى حاول الدكتور زكي مبارك أن يقنع نفسه قبل أن يقنعنا بأنه وقف على أحاديث ابن دريد المفقودة في أمالي القالي ، وحاول بكل طريق أن يخلع على هذه الأخبار من الصفات مايوافق ماجاء في نص الحصري كما وقف عليه ، وخلص الدكتور زكي مبارك إلى عدد من النتائج سردها مطمئنا في كتابه النثر الفني (٢٢)

ولا أدري كيف صح عند الدكتور زكي مبارك أن يقطع بما لا يدع مجالا للشك بأن هذه الأخبار هي بعينها أحاديث ابن دريد مع أن القالي يرويها دائما عن ابن دريد بإسناده عن غيره ، وهو غالبا يروي عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي عن عمه ، ومعنى هذا أن هذه الاخبار تنسب إلى الأصمعي لا إلى ابن دريد نفسه ، ومعنى هذا أيضا أن هذه الأخبار نقلها القالي عن أستاذه رواية ولم ينقلها من أحد تصانيفه ، وهذا كله يناقض ماجاء واضحا في عبارة الحصري من أن ابن دريد ابتكر هذه الأحاديث ابتكارا ، وأنه دونها في مصنف أظهره للناس « وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره وانتخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر وأهداها للأفكار والضمائر .... » .

ويبدو أن طه حسين صرح لزكي مبارك بارتيابه ورؤيته في كلمة (ابن أخي الأصمعي) مثارا للشك ، ولكن زكي مبارك كان حريصا على تبرئة كشفه من كل عيب ، فرأى أن هذه كانت طريقة يتبعها رواة العرب ، وأن ابن أخي الأصمعي هذا كان وضاعا للأحاديث يكذب على عمه (٢٣) .

---

(٢٢) النثر الفني : ١/٢٨٢ — ٢٨٣

(٢٣) المرجع السابق : ١/٣٠٣

وهذا كله لا يسند قضيته فى شىء ولا يقيم دليلا عليها .

وعلى أية حال فقد كان ابن دريد مولعا بذكر الأخبار المستحسنة ، وكان حريصا على إسناد هذه الأخبار إلى من سمعها عنهم ، جاء فى مقدمة كتابه « المجتنى » الذى يشتمل على فنون شتى من الأخبار الموثقة وسماه كذلك لاجتنائه فيه ظرائف الآثار (٢٤) :

« .. وقد ضمنت هذا الكتاب أخبارا وأشعارا سمعتها فعزوتها إلى من سمعتها منه وأشياء قرأتها فيما قرأت من الكتب على أشياخنا ، رحمهم الله ، فمنها اجازة ومنها سماع » .

وأبلغ من هذا ما نراه فى أمالى تلميذ آخر من تلاميذه هو الزجاجى الذى حشد أيضا مجموعة من الأخبار يرويها عن أستاذه (٢٥) إذ يروى أحد هذه الأخبار وهو حديث المرأة التى خطبها زيد الخيل ، وحاتم ، وأوس بن لأم الطائيون ، كما رواه القالى عن ابن دريد عن عبد الرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه ، وبسند آخر عن أبى حاتم عن عبيدة (٢٦) .

ويؤكد هذا قول الأبهرى (٢٧) : « جلست إلى جنب ابن دريد وهو يحدث ومعه جزء فيه ما قال الأصمعى ، فكان يقول فى واحد حدثنا الرياشى ، وفى آخر حدثنا أبو حاتم ، وفى آخر حدثنا ابن أخى الأصمعى عن الأصمعى ، يقول كما يجىء على قلبه » .

ومهما يكن فى هذا النص من اتهام لابن دريد فى صدق روايته ففيه شىء آخر يهمنا هاهنا هو أن ابن دريد كان يحدث عن الأصمعى وأنه كان يملى هذه الأقوال على تلاميذه ، ولكن رواية ابن دريد لأقوال الأصمعى شىء وأحاديثه المبتكرة شىء آخر .

---

(٢٤) المجتنى لابن دريد : ١٢ ، حيدر آباد الدكن ١٣٤٢ هـ

(٢٥) أمالى الزجاجى : ٣٩ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٣٧ بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مطبعة المدنى الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ .

(٢٦) المرجع السابق ١٠٦

(٢٧) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢ / ١٩٦ ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٣١ م .

وعلى هذا فإننى أرى أن اتهام ابن دريد فى الرواية لايجعلنا نستطيع التميز بين موضوعاته التى اتهم فيها و بين أحاديثه الأربعين ، وربما استطعنا ذلك حين يتوفر لنا حديث واحد على الأقل نجد نصا صريحا يطمئن إلى حقيقته ، ولو أننا عددنا روايات الرجل عن الأصمعى فى أمالى القالى وغيرها لبلغت بضع مئات ، لانستطيع أن نتبين فيها ما كان من موضوعاته هو وما كان رواية عن الأصمعى الذى ضاعت مدوناته ، ولم نقف على كل مايعزى إليه ، و يظل لدينا احتمال صدق رواية ابن دريد عن عبد الرحمن ابن أخى الأصمعى ، وإن كان الأخير كاذبا ، فإذا أضفنا إلى هذا اتهام القدماء لابن دريد بتلفيق السند تصعَّب علينا الأمر ، ولم نستطع تقدير حقيقة هذه الروايات على وجه الدقة كما أننا نجد لابن دريد روايات من جهات أخرى تتردد فى الأمالى وغيرها كروايته عن عمه عن أبيه عن ابن الكلبى وبهذه السلسلة يحمل إلينا ابن دريد عددا من الروايات التى يظهر فيها من الوضع والتلفيق أكثر مما يظهر فى غيرها كحديثه عن خنافر الحميرى ورئيه شصار (٢٨) ، ومع هذا لانستطيع الجزم بأنها من أحاديثه الأربعين .

إننى لا أقطع برفض احتمال تسرب بعض الأحاديث الدريدية إلى أمالىّ القالى أو شيوع بعض رواياته قريبا منها على نحو من الأنحاء ، ولكن نص الحصرى ـــ أن صححناه ـــ يوقع فى النفس معنى لاتطمئن معه إلى صدق هذه الروايات . ويجعلها تتعذب فيما يقع إلينا من هذه الأحاديث ، مالا تجده فيما يخوض فيه القوم .

ولا أدرى لماذا يصر الدارسون على البحث عن هذه الأحاديث فى أمالى القالى دون غيرها ، ونحن نجد كتبا أخرى تكاد أن تكون مروية بأسرها عن ابن دريد ككتاب المصون فى الأدب للعسكرى (٢٩) ، وأمالى الزجاجى ، التى أقف منها عند ثلاثة أحاديث لم يروها القالى فى أماليه ، وهى قصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والبطريق ، وخبر سامة بن لؤى ، وما قيل فى رثائه ، وحديث

---

(٢٨) راجع الأمالى لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى : (١/١٦٩) الهيئة المصرية ١٩٧٥ م .

(٢٩) المصون فى الأدب لأبى أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى (ت ٣٨٢ هـ) ... عبد السلام هارون فى الكويت سنة ١٩٦٠ م .

يعقوب بن يوسف الكوفى (٣٠) فأثر الوضع والتلفيق يظهر فيها بوضوح لا نجده فى كثير من روايات الأمالى، ومع هذا لا نستطيع الجزم بأنها صورة من أحاديث ابن دريد المنشودة.

ومن هنا فإننا ننظر بكثير من الشك إلى استنتاج الدكتور زكى مبارك الذى ردده بعده كثير من الكتاب والباحثين، بل إنهم ذهبوا فى الأمر أبعد منه، فإنه قد بنى رأيه على ما بين أحاديث وروايات الأمالى وبين حديث أبى نواس الذى رواه أبو حمزة الأصفهانى — جامع ديوان أبى نواس — من تشابه، ولقد رأى أن ما روى فى أمالى القالى عن ابن دريد يربو على ستين حديثا، ولكنه قرر استبعاد الأحاديث القصار ليصير الباقى قريبا من الأربعين (٣١).

ثم جاء الأستاذ خليل مردم فأعاد النظر فى هذه الأخبار، ولم يصح عنده مما يمكن أن يرد إلى أحاديث ابن دريد الأربعين سوى أحد عشر خبرا، واستبعد غيرها لقصرها، أو خفاء أثر الوضع والصنعة فيها (٣٢)، ولكن الدكتور جميل سلطان عاد ليصحح بعض ما أسقط الأستاذ خليل مردم كخطبة الأعرابى، ووصف الأسد لأنه يريد أن يدلل على تأثر البديع بما جاء فيها (٣٣).

ولو أمكن أن نثقف هذه الأحاديث فى أى من الأمالى لكان الأولى أن نجدها فى أمالى ابن دريد نفسه، التى كان يظن إلى عهد قريب أنها مفقودة (٣٤)، ولكن جزءا صغيرا منها ظهر مؤخرا (٣٥) يحوى بعض القصص التى تقترب كثيرا من روح روايات الأمالى، بل إن بعضها يقترب من روح حديث حج أبى نواس

---

(٣٠) راجع أمالى الرجاجى: ٣٩، ٤٨، ٥٣ بتحقيق عبد السلام هارون، القاهرة المؤسسة العربية ١٣٨٢ هـ.

(٣١) النثر الفنى: ١/٢٨١ — ٢٨٣

(٣٢) أصل المقامات: (الثقافة الدمشقية): ١

(٣٣) فى القصة والمقامة للدكتور جميل سلطان: ٢٠، ٢١ (دمشق، مطبعة الترقى ١٣٦٢ هـ/١٩٤٣ م).

(٣٤) راجع تثقيف اللسان: ٣٢٢ هـ: ١

(٣٥) قطعة من الجزء السابع فى ٦١ ورقة بالخزانة العامة بالرباط رقم ١٥٣ ق وعنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٩٨٦ أدب، ويظهر أنه تعليق من الأمالى.

و يفوقه فى المجون (٣٦) ، ومع هذا يدب هذا الجزء بصفه عامة على أن أمالى ابن دريد كانت فى جملتها كما وصفها حاجى خليفة تقييدات لغوية فى العربية (٣٧) ، وكما يظهر من نقول السيوطى عنها فى كتابه المزهر (٣٨) وهو وثيق الصلة بهذه الأمالى إذ لخصها فى كتاب سماه « قطف الوريد » (٣٩) .

كما وقع سـ ، الملك مرتاض فى حيرة كبيرة حين طالع روايات الأمالى ووجد أنها ذات طوابع مختلفة ، فرأى أن الحصرى كان مخطئا أومبالغا فى حكمه على إنتاج ابن دريد (٤٠) وانتهى إلى تقسيم هذه الروايات إلى أحاديث لغوية وأخرى أدبية .

ولكن أكثر الكتاب نسوا هذا أوتناسوه ونقلوا عن زكى مبارك أونقل بعضهم عن بعض أن الأخبار المروية فى الأمالى هى أحاديث ابن دريد بل ذهبوا بعيدا فقرروا فى اطمئنان أن الأحاديث الأربعين مروية جميعا فى هذه الأمالى وراحوا ينقلون عنها الصفحات الطوال و يوازنون بينها و بين مقامات البديع ، ومنهم من وافق زكى مبارك على أنها تصلح نموذجا ألهم البديع مقاماته ومنهم من أنكر ذلك ، ولكنهم جميعا بنوا أحكامهم على أساس من هذه الأخبار التى روتها الأمالى . و يطول بنا المقام لوسردنا هذه الأقوال جميعا وناقشناها (٤١) ولكننا نكتفى هنا بقول الدكتور شوقى ضيف (٤٢) .

---

(٣٦) كحديث العجوز الذى أتى إحدى نسائه وعليه آثار غسل ، وقد أضربت عن ذكره لتناهيه فى المجون الصريح .

(٣٧) ـ ـب فى أسامى الكتب والفنون ١/١٦٢ (وكالة المعارف ١٣٦٠ هـ ــ ١٩٤١ م) .

(٣٨) ـع على سبيل المثال : ١/١٢٥ ، ٥٠١ ، ٢/٣٤٦ ، ٥٢٠ من المزهر فى علوم اللغة وأنواعها بتحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبى .

(٣٩) راجع الاشتقاق لابن دريد ، المقدمة ص ١٥ بتحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٥٨ م .

(٤٠) القصة فى الأدب العربى القديم : ١٦٣ ، الجزائر ، دارمكتبة الشركة الجزائرية ١٩٦٨ م .

(٤١) راجع على سبيل المثال : تطور الأساليب النثرية : ٣٦٣ــ٣٦٥ ، القصة فى الأدب القديم : ١٦٣ ــ ١٧٢ ، الأدب المغربى : لمحمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفى ٣٩٣ (بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م) ، دراسات نقدية فى الأدب الحديث والتراث العربى للدكتور أنس داود : ٢٢٤ (القاهرة ، دارالجيل ١٩٧٥ م) ، عصر سلاطين المماليك : لمحمود رزق سليم ٥/٣٧٠ ، القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٣٨١ هـ/١٩٦٢ م .

(٤٢) المقامة : ١٧ ، وعلى هذا النحو نجد الدكتور محمد رشدى حسن يرى أن أحاديث ابن دريد

« وقد رأينا فى غير هذا الموضع أنّ كلمة « مقامة ». معناها حديث ، وفى هذا ما يربط أدق الربط بين العملين ، و يستطيع القارىء أن يرى ذلك فى وضوح إذا رجع إلى كتاب الأمالى لأبى على القالى ، وهو الكتاب الذى يحتفظ بأحاديث ابن دريد الأربعين »

لنراه قد قرر أن الأحاديث الأربعين جميعا قد رويت فى أمالى القالى وهذا مالم يقله زكى مبارك نفسه ، ثم يستطرد بالموازنة بين مقامات البديع وهذه الروايات فيقول[٤٣]

« وعلى كل حال أنشأ بديع الزمان مقامته مقامته معارضة لأحاديث ابن دريد ، وإن من يقرأ الأمالى و يتعقب بديع الزمان فى عمله يرى الصلة واضحة تمام الوضوح بين الصنيعين ، وإن المقامة الأسدية عنده لتعد صيغة نهائية لصفة الأسد فى ذيل الأمالى ، وكذلك الشأن فى المقامة الحمدانية وماجاء بها من صفة الفرس فإنها تكميل وتتميم لما جاء فى الأمالى من وصف الفرس .

« وكثير من الأدعية والمواعظ فى المقامات يتصل اتصالا مباشرابما فى الأمالى ونفس الحكم والأمثال والوصايا كل ذلك نجد صورة واضحة عند بديع الزمان ، وبين مقاماته مقامة تسمى الوصية وأخرى تسمى الوعظية وليس ذلك حسب فقد تكون الفكرة التى أدار حولها مقاماته ونقصد الكدية أوالشحاذة استمدها مباشرة من « خطبة الأعرابى السائل فى المسجد الحرام والتى رواها صاحب الأمالى عن ابن دريد . ومعنى ذلك أن الأدلة كثيرة على أن بديع الزمان تأثر ابن دريد فى مقامته وأنه عارضه بها معارضة ..... »

ومن جهة أخرى يطالعنا الباحث عبدالرحمن عبدالرؤوف الخانجى بقوله[٤٤] :

= ليست موجودة فى كتاب مستقل ، و يؤمن تماما بأنها فى كتاب الأمالى وذيله والنوادر ، وعلى هذا درسها ورأى لبعضها قصدا بلاغيا ولبعضها الآخر قصدا لغويا راجع تطور فن المقامة العربيه : ص ٢٠ ، ٢١ ، ٣١ (رسالة دكتوراه ـــ مخطوطة ـــ كليه الآداب ـــ جامعه القاهره ١٩٦٠) .

(٤٣) المقامة : ١٨

(٤٤) فن المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلس : (خط) ٦ (رسالة دكتوراه كليه الآداب ـــ جامعه القاهره ١٩٧٤م)

« ... ومما مهد أيضا لنشأة المقامة أحاديث ابن دريد الواردة فى كتاب « الأمالى » لأبى على القالى . هذه الأحاديث لم يشر إليها أى من كتب التراجم التى ترجمت لابن دريد بل إن صاحب (الفهرست) والذى ذكر من مصنفات ابن دريد مالم يذكره غيره من المترجمين من مصنفاته (التى لم يمهله الأجل لا تمامها مما هو مخطوط ولم ينشر بعد) لم يتعرض لأحاديث الأمالى وكل هذا لا يطعن — عندى — فى صحة هذه الأحاديث إذ أن أباعلى القالى أحد تلاميذ أبى بكر بن دريد وممن أخذ (كذا) عنه مباشرة ، فهو أقرب إليه ممن ترجم عنه ، ونلاحظ أن ماحوته هذه الأحاديث من ألفاظ حوشية ، وطريقة تعليمية ، هى أشبه بابن دريد اللغوى النحوى المعلم ، وهذه الأحاديث توجد فى كتاب الجمهرة لابن دريد نفسه ... »

هكذا انتهى الخانجى إلى أن أحاديث ابن دريد رويت فى أمالى القالى ، وسلمت هذه الأحاديث عنده من كل طعن ، و يتهافت عجبنا من هذا أمام رأيه المدهش حقا حين يقرر أن ابن دريد روى أحاديثه فى معجمه « الجمهرة » ولعله ظنه شيئا آخر

ومهما يكن من أمر فقد وازن الخانجى بين روايات القالى ومقامات البديع لينتهى إلى رأى آخر يسوقه فى غير قليل من التردد حيث يقول[٤٥]

« هذا ماكان من تأثير الأحاديث الدريدية على فن المقامات ، وهو الجانب اللغوى المحض ، أما مازعمه الحصرى وجاراه فيه بعض المحدثين من أن الهمذانى إنما عارض أحاديث ابن دريد ، أوأن تلك الأحاديث هى أصل الفن المقامى ، أوانها هى التى ألهمت الهمذانى مقاماته ، فزعم أقبله بحذر وتحرز ، وأقف منه موقف الشك طويلا ، بل — وفى تواضع — الرفض الصريح » .

أما قول الدكتور زكى مبارك[٤٦] :

« ... لاحظ صاحب زهر الآداب أن الأربعين حديثا التى ابتكرها ابن دريد (جاء أكثرها مماتنبو عن قبوله الطباع ، ولاترفع له حجبها الأسماع)

---

(٤٥) فن المقامة : ٧ — ٨

(٤٦) النثر الفنى : ١/ ٢٨٢

وأنها وقعت (فى معارض عجمية وألفاظ حوشية) ولوأننا تتبعنا مانقله القالى من تلك الأحاديث لوجدنا الصنعة والإغراب ظاهرين فيها كل الظهور ، وربما ساغ لنا أن نفترض أن ابن دريد تعمد أن يدس فى أحاديثه بعض الألفاظ التى اتهم بافتعالها وتوليدها » .

فبناء على غير أساس ، لأن نص الحصرى الذى اعتمد عليه زكى مبارك كان ولايزال محرفا أشد التحريف ، وقد حررناه وسعنا فيما مضى من القول اعتمادا على ماجاء عند ياقوت والكلاعى . هذا القول الذى جعل الدكتورزكى مبارك يربط بين أحاديث ابن دريد وما رواه القالى عنه من أخبار ومحاورات الأعراب التى يزخر بها و بأمثالها كثير من كتب الأدب والذى جعل جماعة من الباحثين يذهبون إلى أن ابن دريد وضع أحاديثه هذه محاكاة وتقليدا لروح القصة الفارسية ، وان قصصه استمدت موضوعها من البيئة الفارسية(٤٧) ، هذا القول الذى أدى إلى هذين الرأيين على مابينهما من تناقض ، جاء محرفا ، لذا حق لمحمود غناوى الزهيرى عندما طالعه فى معجم الأدباء (فى معارض حوشية وألفاظ عنجهية) أن يقول(٤٨)

« لاشك عندى فى أن رواية ياقوت أصح من رواية زهر الآداب ... استدل على ذلك من (كذا) ورود كلمة « عجمية » فى غير موضعها ، ومن إقحامها فى كلام سيق فى وصف أحاديث منتزعة من صميم الحياة العربية القديمة ، بعيدة كل البعد عن الحياة الفارسية ، تلك هى أحاديث ابن دريد وإذا لم يكن الأمر كذلك . فكيف يمكن أن يكون الحديث عن مقاول حمير ثم يوضع فى معارض عجمية ؟ بل كيف يوضع ذلك الحديث فى معارض عجمية ثم تنبو عن قبوله الطباع ولا ترفع له حجبها الأسماع ؟ وهل كانت هذه الأسماع وتلك الطباع إلا فارسية عصرية ؟ فلماذا إذن تنبو عنه ولا تأنس به ؟ »

---

(٤٧) تاريخ الأدب العربى : [illegible]عى بيومى ١٩٨/٣ (القاهرة . مكتبة الانجلو المصريه ، مطبعه الرسالة ، الطبعة الثانية ١٣٧٦هـ/١٩٥٨م) ، تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى لإبراهيم على أبوخشب : ٥٣٠ ـ (الإسكندرية ـ الهيئة المصرية) ، تيارات ثقافية بين العرب والفرس للدكتور أحمد الحوفى : ص ٢٨١ (القاهرة ، مطبعة نهضة مصر ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)

(٤٨) الأدب فى ظل بنى بويه : ٢٢٩

ومع هذا فإن نص ياقوت لم يخل من تحريف ولعل أصدق صورة لهذا النص هى التى نقلها لنا الكلاعى فى إحكام صنعة الكلام حيث جاء (فى معارض حوشية وألفاظ غنجية) هذا هو الوجه الذى يستقيم به الكلام لفظا ومعنى فوصف الألفاظ بأنها عنجهية وصف يأباه الحس اللغوى لمن أدمنوا قراءة الكتب القديمة حيث العربية الناصعة والبيان المشرق .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نفهم قول الحصرى :

« فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجب الأسماع » فالعبارة لا توحى بما ذهب إليه زكى مبارك والزهيرى من أن الصعوبة والإغراب فى اللفظ بل توحى بأنها كانت فى جملتها أحاديث ماجنة سيقت فى ألفاظ خليعة فاحشة لذا تنفر من تفاصيلها الطباع الكريمة ، وتتقزز من ألفاظها الأسماع الشريفة ، ولولا أن الزهيرى قد بنى نقده لنص زهر الآداب انطلاقا من الإيمان بما ذهب إليه زكى مبارك من أن أخبار القالى هى بعينها أحاديث ابن دريد لكان له مع رواية ياقوت شأن آخر .

وخلاصة القول أننا نؤمن مع زكى مبارك بدور ابن دريد فى نشأة المقامة العربية وأثره فى عمل البديع ، ولكننا لا نستطيع أن نسلم معه بأن روايات الأمالى تعطى صورة صادقة لأحاديثه الأربعين ، ونميل إلى إشارة بروكلمان الهادئة (٤٩) : « و يظن زكى مبارك أنه وجد نقولا من هذا الكتاب فى أمالى القالى ، ولكن الاستدلال على نسبة هذه القطع غير ظاهر » .

وأخيرا نجد من الباحثين المحدثين من يشير إلى ابن فارس اللغوى (٥٠) على أنه مبدع فن المقامات .

---

(٤٩) بروكلمان : (معرب) ٢/ ١٨٤

(٥٠) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوى ، يجرى فى النحو على طريقة الكوفيين . توفى بالرى سنة ٣٩٥ هـ ، ترجمته فى دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٤٧ وإنباه الرواة للقفطى ١/ ٩٤ (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٩٥٠ــ ١٩٥٥ م) و بغية الوعاة للسيوطى ١/ ٥٢ (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبى ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٥ م) و بروكلمان ٢/ ٢٦٨ ، وانظر العلامة اللغوى بن فارس الرازى للدكتور محمد مصطفى رضوان (دار المعارف بمصر ١٩٧١ م)

وابن فارس هو أستاذ الهمذانى ومؤدبه ، وكان متبحرا فى علوم العربية مشاركا فى فنون عديدة ، يناظر فيها ، ولكن اللغة ظلت أكبر أدواته ، فإذا وجد فقيها أو متكلما أو نحويا ناظره فى جنس العلم الذى يتعاطاه ، فإن وجده بارعا جدلا جرّه فى المجادلة إلى اللغة فيغلبه بها ، وكان يأخذ على الفقهاء إهمالهم علم اللغة ، و يلقى عليهم مسائل يخجلهم بها و يقول من قصر علمه عن اللغة وغولط غلط (٥١) ، و يبدو أن جملة من هذه المسائل قد تجمعت لدى ابن فارس فصنف كتابا أودعها فيه وسماه « فتيا فقيه العرب » (٥٢)

ومنه اقتبس الحريرى مادة مقامته الثانية والثلاثين المعروفة بالطيبية أو الحربية حيث هجم أبوزيد على نادى بنى حرب وادّعى أنه فقيه العرب العرباء ، فنهض إليه فتى منهم « فقال إنى حاضرت فقهاء الدنيا ، حتى انتخلت منهم مائة فتيا » ولم يزل يطرحها عليه واحدة بعد أخرى وأبوزيد يجيب عنها بغير تباطؤ حتى سلّم له بما ادّعى . وهى مسائل فقهية تجرى على المذهب الشافعى وهذا يتضح بجلاء فى قول الرواية للبطل فى نهاية المقامة :

« وأشكرْ لمن نقلّك عن مذهب إبليس إلى مذهب ابن إدريس » .

وقد كان الحريرى شافعى المذهب ، كما كان ابن فارس من فقهاء الشافعية الكبار وقد لحظ القدماء هذا الاقتباس فأشاروا اليه بدقة كما فى قول السيوطى :

« ... وله كتاب حلية الفقهاء ، وله رسائل أنيقة ، ومسائل فى اللغة و يعايى بها الفقهاء ، ومنه اقتبس الحريرى صاحب المقامات ــ الآتى ذكره ان شاء الله تعالى ــ ذلك الأسلوب ووضع المسائل الفقهية فى المقامة الطيبية ، وهى مائة مسألة » (٥٣)

ولكن خيال جرجى زيدان وسع الأمر فلم يقف بظنه عند حد ، إذ تصور أن

---

(٥١) إنباه الرواة : ١/ ٩٤

(٥٢) كذا فى إنباه الرواة : ١/ ٩٤ ، وإحكام صنعة الكلام ١٨٩ وفى بغية الوعاة ١/ ٣٥٢ فتاوى خطب العرب أو مسائل فى اللغة يغالى (كذا ، واظنها يغالب أو يعايى) بها الفقهاء

(٥٣) بغية الوعاة : ١/ ٣٥٢ وقد نقل ذلك صاحب روضات الجنات عنه وعن ابن خلكان ١/ ١١٨ ، وانظر أيضا بروكلمان (معرب) ٢/ ٢٦٨ على أن ابن فارس لم يكن أول من وضع =

الحر يرى تأثر بابن فارس فى وضع المقامات ، وما دام الأمر كذلك فلا شك أن البديع تلميذ ابن فارس أسبق منه إلى ذلك .

ومن هنا رأينا جرجى زيدان يقول فى ترجمة ابن فارس (٥٤) : « وله فضل التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس العلماء منها نسقه » ، و يقول فى عمل البديع فى مقاماته (٥٥) : « وقد اقتبس نسقه من أستاذه ابن فارس اللغوى » ، لقد انتهى جرجى زيدان الى أن ابن فارس هو المبتكر الحقيقى لفن المقامات الأدبية ، ومع مافى استنتاجه هذا من مغالطة فقد تناقله عن عدد من الباحثين (٥٦) ، بل نجد الدكتور جميل سلطان يعلق على كلام ابن خلكان بقوله (٥٧) :

« .. وفى هذا بيان لتأثير ابن فارس فى نشأة المقامات ، إذ اقتبس الحريرى منه ... وكان بديع الزمان الذى سبق الحريرى بنحو قرن ، تلميذ ابن فارس الخاص ، حتى استنفد ماعنده ... على أن مقامة ابن فارس مفقودة فلا يمكن أن نقارن بينها و بين مقامات البديع أو الحريرى » .

وهكذا نرى الدكتور جميل سلطان يقرر فى اطمئنان بالغ أن لابن فارس مقامة من إنشائه وأنكى من هذا أن يأتى بعده الدكتور أحمد الحوفى ليجعلها مقامات لامقامة حيث يقول عنه (٥٨) :

= مثل هذا التصنيف فقد سبقه ابن دريد فى كتابه الملاحن ثم وضع المفجع البصرى (ت ٣٢٠ هـ) كتابا فى موضوعه سماه « المنقذ من الايمان » ، العلامة اللغوى ابن فارس الرازى ص ١٩٤ ، وذكروا أنه أجود من الملاحن ولعل أول من عرف بهذا الضرب من المعاياة اللغوية هو الإمام الشافعى نفسه ، انظر الملاحن واحكام صنعة الكلام ١٨٩ . ومقدمة الاشتقاق : ٢٠

(٥٤) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجى زيدان : ٣/٣١٠ (راجعه وعلق عليه دكتور شوقى ضيف ، القاهرة ، دار الهلال ١٩٥٧ م) .

(٥٥) تاريخ آداب اللغة العربية : ٣/٢٧٧

(٥٦) تطور الأساليب النثرية : ٣٦١ ، الأدب المغربى : ٣٩٣ ، بلاغة الكتاب : ١٠٦ ، الأصمعى : حياته وآثاره : للدكتور عبد الجبار الجومرد : ٢٧٢ بيروت مطابع دار الكشاف ١٩٥٥ م ، العلامة اللغوى ابن فارس الرازى : ٤٩

(٥٧) فى القصة والمقامة : ١٧

(٥٨) تيارات ثقافية : ٢٨١ ، وانظر أيضا قول إبراهيم على أبوخشب فى تاريخ الأدب العربى فى =

« وضع مقامات حاكاها بعض الأدباء ، وقد اشتهر من بينهم تلميذه بديع الزمان الهمذانى » .

ثم نجد باحثا آخر هو الدكتور يوسف نور عوض يذهب إلى أبعد من ذلك ، حين يعلق على كلمة ابن خلكان بقوله : (٥٩)

« ولا نذهب إلى أن الأسلوب المقصود فى عبارته تلك هو وضع المسائل الفقهية فى المقامة لأن العطف الظاهر يؤكد أن الأسلوب المقصود هو أسلوب المقامة . وهذا لايتناقض مع علمنا بأن الحريرى قد جارى بديع الزمان فى مقاماته كما جاء فى اعترافه ، بل يدلنا على أن بديع الزمان نفسه قد اتخذ من ابن فارس مصدرا من المصادر التى ساعدته فى صوغ أسلوبه الفنى »

ثم راح يعلل غموض صورة أثر ابن فارس فى المقامات البديعية ، وعدم القدرة على استنطاق مابين أيدينا من نصوص لتحديد هذا الأثر على وجه الدقة بأن شخصية ابن فارس العلمية قد طغت على شخصيته الفنية وطمست ملامحها .

ولست محتاجا بعد هذا إلى القول بأن القدماء كانوا أدق فهما وتعبيرا من جرجى زيدان وأصحابه ، فقد أشاروا إلى أن الحريرى قد تأثر ابن فارس فى مقامة واحدة من مقاماته هى المقامة الطيبية ، وأن تأثره هذا لم يتعدّ المادة الغفل التى بنى عليها الحريرى مقامته التعليمية هذه ، وأن اقتباسه كان من كتاب فى الفقة لامن عمل أدبى ، وأخيرا لاشأن للبديع بهذا كله .

فالمسألة راجعة إلى الفهم السقيم لروح النصوص العربية القديمة ، والشطط فى تأويل معانيها ، وراجعة أيضا إلى إهدار حق الكلمة عند باحثينا المحدثين حين

العصر العباسى الثانى ٥٣٠ « فإن رجلا كابن دريد جاء بعده بفترة من الزمن فصنع صنيعه ، وجرى فى حلبته ، ولكنه أخفق إخفاقه وسحب النار يخ على مقاماته ذيول النسيان ، وذلك الرجل هو ابن فارس صاحب كتاب « مجمل اللغة » وقوله ص ٥٣٢ : « .. وقد ولبه أبو الحسين أحمد بن فارس الرازى صاحب كتاب المجمل فى اللغة المتوفى ٣٩٠ هـ (كذا) فعمل ــ أيضا ــ مقامات لم تصل إلينا كسابقتها » ، وانظر أيضا تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى : ١٩٧/٣ حيث يقول : « فقد وضع مقامات اتبع الأدباء نسقه فيها وكان أولهم اتباعا تلميذه البديع » .

(٥٩) فن المقامات بين المشرق والمغرب للدكتور يوسف نور عوض : ٦٧ (بيروت ، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م)

ينقل بعضهم عن بعض مهملا ذهنه وفكره ، معفيا نفسه من عناء التنقيب في بطون المصادر الأصيلة .

وإذن فلا علينا إذا استبعدنا ابن فارس ذلك الاسم الكبير فى ميدان اللغة والفقه من مضمار الفن المقامى .

وتبقى بعد ذلك أسماء ينبغى أن نتوقف عندها .

الفصل الثالث

رواد المقامة

(١) ابـــن دريـــد
(٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ)

لا اخفى أننى ترددت شيئا وأنا أقدم ابن دريد بين يدى رواد الفن المقامى فى الأدب العربى ، بل حين أقدمه عليهم جميعا ، فلقد يقال إن معارضة البديع لعمله وتأثره به حين كتب مقاماته لا يعنى أن ما وضعه بالضرورة مقامات ، ولكنى بعد أن قلبت الأمر على وجوهه زدت إيمانا بضرورة ما ارتأيت ، لسببين :
أولها : إظهار الدور الريادى لهذا الرجل فى نشأة فن المقامة ، الذى ما زال يحتاج إلى تأكيد ، والآخر : أن الأحكام التى أطلقت على عمله تستدعى وقفة فيها الكثير من الأناة .

وترجع شهرة ابن دريد إلى كونه واحدا من علماء اللغة الكبار فى الفترة الطويلة التى عاشها بين القرنين الثالث والرابع ، ولكن ابن دريد لم يكن عالما لغويا فحسب ، بل كان أديبا كبيرا أيضا ، وربما كانت الحاسة الأدبية عند ابن دريد أعز ملكاته جميعا وأقواها ، ويشهد على هذا شعره القوى الرصين فى ديوانه ومقصورته المشهورة ، الذى ينفى عن الذهن ما هو معروف عن شعر العلماء والكتاب من ضعف ، حتى قيل إن ابن دريد أعلم الشعراء ، وأشعر العلماء ، وقال فيه أبو الطيب اللغوى (١) :

« وكان أحفظ الناس ، وأوسعهم علما ، وأقدرهم على الشعر ، وما ازدحم العلم والشعر فى صدر أحد ازدحامهما فى صدر خلف الأحمر وأبى بكر بن دريد »

---

(١) مراتب النحويين : لأبى الطيب الادفوى ص ٨٤ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥ م .

ولقد عرف ابن دريد ذلك فروى عنه أنه قال (٢) :

« سقطت من حماري بأرض فارس ، فبت وجعا ، فاتاني آت في منامي وقال لي : قل في الخمر شيئا ، فقلت : وهل ترك أبو نواس لقائل مقالا ؟ قال : أنت أشعر منه حيث تقول :

حَكَتْ وجنةَ المعشوقِ لوناً فَسلّطوا عليها مزاجاً فاكتست لونَ عاشق

فقلت : من أنت ؟ قال : أنا شيطانك أبو راجية ، قلت : وأين تسكن ؟ قال : الموصل » .

ويبدو أن هذا الميل الأدبي القوي في نفس ابن دريد قد انعكس على تصرفاته الحياتية وأعماله العلمية ، فقد كان يحيا حياة الأدباء والشعراء انطلاقا وتحررا من القيود ، ولا يراعي ماهو معهود عند أقرانه من العلماء من الالتزام في الفعل والقول ولا يتحرز في ذلك حتى أمام تلاميذه حتى قال فيه بعضهم (٣) : « كنا ندخل على ابن دريد فنستحي لما نرى من العيدان المعلقة ، والشراب المصفى موضوع » ، أو أن سائلا أتاه ، فلم يكن عنده غير دن نبيذ ، فدفعه إليه ، فأنكر عليه غلامه ما فعل ، فقال : لم يكن عندنا غيره ، وتلا قوله تعالى : (لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون) .

وقد انعكس ذلك كله على أعماله العلمية فقد جرحه كثير من تلاميذه ومعاصريه واتهموه على نحو خاص بوضع السند واختراع الرواية ، فقد ذكره معاصره الأزهري في صدر كتابه التهذيب فقال (٤) :

« وممن ألف في عصرنا الكتب ، فوسم بافتعال العربية ، وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول ، وإدخال ماليس من كلام العرب في كلامهم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي »

---

(٢) المحمدون من الشعراء : للقفطي ص ٢٨٠ بتحقيق رياض عبد الحميد مراد ، دمشق ، مطبعة الحجاز ، ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م .

(٣) بغية الوعاة : ١/٧٦ ، وطبقات النحاة واللغويين : لابن قاضي شهبة : ٨٥ بتحقيق الدكتور محسن غياض ، النجف الأشراف ١٩٧٤ م . وإنباه الرواة : ٣/٩٥

(٤) تهذيب اللغة : ١/٣١ ، وبغية الوعاة : ١/٧٧

وقد سئل عنه الدار قطنى فقال : « تكلموا فيه ، وقيل إنه كان يتسامح فى الرواية فيسند إلى كل واحد مايخطر له (٥)

ومع أن تجريح الأقران لا يؤخذ به فإن هذه الأقوال وإن كانت تؤثر فى منزلته العلميه ، فإنها قد توحى بحاسة الخلق والابتكار الفنى عنده .

وليس من المستبعد بعد هذا على ابن دريد أن ينشىء فصولا نثرية تسعفه فيها ملكته الأدبية فيجيد فيها إجادته فى شعره .

ولقد رأينا من قبل كيف أشار الحصرى إلى دور ابن دريد فى خلق نمط أدبى جديد كان المعين الذى استقى منه البديع ، والنموذج الذى احتذى ، ورأينا أيضا كيف أعاد الدكتور زكى مبارك اكتشاف هذا الدور فى عصرنا الحديث حين أبرز كلام الحصرى وأعطاه مايستحق من العناية .

ومع أن النص كما وقف عليه الدكتور زكى مبارك لم يخل من تحريف أخل بمعناه فإنه انتهى إلى الإيمان بدور ابن دريد رائدا لفن المقامة فى أدبنا العربى ، ومنذ ذلك الحين تنبه الباحثون إلى هذا الدور ، ولم يكن هذا التنبه إيجابيا دائما ، فلقد ارتفعت أصوات كثيرة تعارضه لسبب أو لآخر .

فهذا مارون عبود يقول صراحة (٦) :

« إن خطة المقامات هى من عمل البديع ، فلا لابن فارس ولا بن دريد فى صنعتها ، فالهمذانى هو الذى ألبسها هذا الطراز الموشى ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، فعبثا نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع » .

أما الدكتور مصطفى الشكعة فيقول فى شىء من التحرج (٧) :

« ونحن يجب أن نتقبل هذا الكلام بتحفظ شديد ، فقد يكون من الظلم لبديع الزمان والتجنى عليه أن نلصق به هذه الفكرة على علاتها »

وليس سرا أن يقال إن الرجلين وقد وضعا كتابيهما عن البديع عزَّ عليهما أن يعترفا لغيره بفضل السبق إلى أفضل أعماله .

---

(٥) بغيه الوعاة ١ : ٧٧

(٦) بديع الزمان ٣٤

(٧) بديع الزمان ٢٠٧

أما الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فيقول (٨) :

« وليس هناك إلا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى وصاحب الفضل فى إنشائها » .

وهو هنا لا يتحزب للبديع كزميليه وإنما يقول ذلك إكراما لخاطر أبى دُلف حيث أراد بكل وجه أن يثبت أنه الوجه الحقيقى لأبى الفتح الإسكندرى بطل مقامات البديع وأنه الشخصية الواقعية التى جسدت بطله ، وليس من شك فى أن وجود نماذج سابقة يلقى ظلالا من الشك على هذه القضية .

أما محمود غناوى الزهيرى فقد أسرف على نفسه حين قال (٩) :

« نستطيع أن نقول إن المقامات بمعناها الاصطلاحى أو بشكلها الفنى المعروف لم تتحقق إلا على يدى بديع الزمان الهمذانى ، كما نستطيع أن نقول إن البديع هذا لم يكن متأثرا حين أنشأ هذه المقامات بأحد من الكتاب الذين سبقوه ، وإنما كان متأثرا بواقع الحياة العامة » .

وهو يريد بذلك أن يؤكد الفكرة التى ألح عليها فى دراسته وهى أثر المجتمع البويهى فى نتاجه الأدبى ، بل إنه يذهب إلى أن كلام الحصرى لا يدل على خصائص فنية مشتركة بين أحاديث ابن دريد ومقامات البديع وإنما يدل على انهما كانا على طرفى نقيض شكلا وموضوعا (١٠) .

ولقد يكون من السهل أن نرد على ذلك كله بتساؤل واحد هو: لماذا إذن قرن الحصرى بين أحاديث ابن دريد ومقامات البديع ؟

ويحسن هنا أن نستعيد معا كلام الحصرى كما حررناه (١١) ، لنرى أن ابن دريد نفسه قرر فى صدر هذه الأحاديث أنه استنبطها من ينابيع صدره وأنتجها من معادن فكره .

وقد قرر الحصرى أن ابن دريد قد أغرب بأحاديثه هذه مما يوحى بالجدة سواء فى البناء أم فى المضمون ، ومعنى هذا أنها تختلف عن غيرها من الحكايات التى

---

(٨) الإسلام والحضارة الإنسانية للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى : ٣٥١ ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م .

(٩) الأدب فى ظل بنى بويه : ٢٣١ وقد تبعه فى ذلك جورج غريب : العصر العباسى : ١١٢ ، وعبد النافع طليمات : أهل الكدية أبطال المقامات : ص ١١ (حمص ، دار ابن الوليد ١٩٥٧ م)

(١٠) الأدب فى ظل بنى بويه : ٢٢٦

(١١) راجع ص٢٥ من هذه الدراسة

يمكن أن يقال انها أثرت فى عمل البديع كأعمال الجاحظ ، وقد كان الحصرى على صلة وثيقة بها ونقل عنها نصوصا طو يلة فى زهر الآداب .

هذا ما أفهمه من قول الحصرى : « أغرب بأر بعين حديثا » لاماذهب إليه الزهيرى من أنها كانت غر يبة الألفاظ والمعانى (١٢) .

وسواء أكان البديع قد أنشأ مقاماته معارضة لأحاديث ابن در يد أم معارضة لابن در يد نفسه فإن كلام الحصرى ينصب على هذا العمل لابن در يد دون غيره .

ولا شك فى أن وجوه الاختلاف بين العملين التى أبرزها الحصرى تعنى اتفاقهما فيما سواها ، فعبارة الحصرى توحى بأنهما قد اختلفا فى العدد ، فعلى حين أنشأ ابن در يد أر بعين حديثا صنع البديع أر بعمائة مقامة .

وعلى حين عدد ابن در يد موضوعات أحاديثه « وتوسع فيها ، إذ صرف ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة وضروب متصرفة » ، وقف البديع جل مقاماته على الكدية .

و بينما مال ابن در يد بأحاديثه إلى المجون والفحش ، لاح على مقامات البديع طابع الفكاهة والظرف ، وأخيرا نستنتج أنه على حين عطف البديع مساجلة مقاماته ووقف مناقلتها على رجلين ، تعددت فى أحاديث ابن در يد الشخوص والأبطال .

فإذا أضفنا إلى هذا كله أن كلمة « أحاديث » التى سمى بها الحصرى أعمال ابن در يد ــ ان لم تكن تسمية ابن در يد نفسه ــ تحمل معنى المقامة ، جاز لنا أن نقول اعتمادا على هذه الأدلة التى سقناها إن أحاديث ابن در يد إن لم تكن مقامات بالمعنى الاصطلاحى الذى ظهر عند البديع فإنها لاتقع بعيدا عنها .

هذه هى أهم الفروق بين العملين وتكمن فيها كما نرى أوجه الشبه .

ولقد يحق لى هنا أن أؤ يد هذه الدعوى بما يسندها حتى لا يظن ظان أن الذنب لايقع على « الحصرى الذى اجتهد فحرم التوفيق ، ولكنه يقع على الباحثين المحدثين الذين قلدوه » (١٣)

ولنقرأ معا ما رقمه الحنفى فى صدر مقاماته الثلاثين (١٤) :

« .... ووزّعت كلامه على مقامات واضحات ، متلوة الكلمات ، مجلوة الآيات ، ساطعة اللفظ والمعانى ، واضحة الوضع والمبانى ، وهى على عدد ليالى

(١٢) الأدب فى ظل بنى بو يه : ٢٢٥

(١٣) القصة فى الأدب العربى القديم : ١٦٣

(١٤) مقامات الحنفى : ٤

الكلم ثلاثون لا أربعون ، ولا كمقامات المصْقعين خمسون أو العشرون ، أما أين هذا القطر من تلك الأبحر ، أم أين الساعة من السنين والأشهر » ؟ ترى هل جاءت « الأربعون » ها هنا لخاطر السجعة وحدها ؟ لا أظن ذلك بل أحسبها إشارة واضحة إلى أحاديث ابن دريد أو لياليه أو مقاماته .

ولعل هذا يبدو واضحا فى عطفه مقامات الحريرى والبديع عليها (١٥) .

وإذا لم يكن قد عدّ مقامات ابن دريد فى حسابه ، فلماذا تساءل بصيغة الجمع بقوله : « أين هذا القطر من تلك الأبحر ؟ » ؟

لاشك عندي أن الحنفي عنى بهذه الأحاديث الأربعين لابن دريد ، بل أرى أنه قرأ هذه الأحاديث وتأثر بها حين وضع مقاماته الثلاثين التى تفوح برائحة الجنس والمحاورات الماجنة الخليعة حول الجوارى والغلمان .

ولو أغرقنا فى الشك وقلنا إن العرب تستعمل الجمع للدلالة على المثنى ، وأسرفنا فى تكذيب أنفسنا وقلنا إن الحنفى لم يصرح باسم ابن دريد ، فعلنا نجد ضالتنا عند كاتب آخر من كتاب المقامة فى الأندلس ، يقول فى إحدى مقاماته (١٦) :

« ... وقال يا أخا الأنصار ، هل سمعت بحديث شَصار ؟ ، تنافرتْ منه الصدورُ والأعجاز ، وتفادتْ منه البلاغةُ والإيجاز ، لا جَعْدُ ولا سبط ، ولا ثمرة ولا خَبط ، قد لفظته الرواةُ لفظا ، ولم تحققه معنىً ولا لفظا ، فأعرض عما هنالك ، وإيّاك تلك المسالك ، وهذا الحبر النبيل ، والناسك الأبيل ، قد نشر معارف وعلوما ، وشفى جراحا وكلوما ، سلب فيه محمدَ بنَ الحسن جَمال الصدق وبهاء اللسن ، واستعاذ بالله من ذلك القصص ، ودعا لقائله بالجَرَض والغَصَص ، حين شاب الصِّحة بالمرض ، ولم يَرْم بسهم إلى غَرَض ، وعجب من الراوى السامع ، كيف استغرَّ بذلك البَرْق اللامع وكيف لم يَنْزُغ له من الحقِّ بازِغ حين نَزَغ بالباطل نازغ ، فقلتُ أجلْ إنَّ الصنعة عليه لَتَرِف ، وإنَّ الدَّعوى عنه لتَشِف ، ولكن مَنْ لى بهذا الوصف الرائق ، والذكر الشّائق ، فسار بى إلى ذئب خالِس أو أديبٍ جالِس ... »

---

(١٥) يبدو أنه لم يقف من مقامات البديع إلا على عشرين مقامة كما هو الحال عند ابن شرف .

(١٦) المقامات اللزومية للسرقسطى : المقامة ٣٨ ص ٤٤٣ بتحقيق الدكتور بدر أحمد ضيف ، الإسكندرية ، الهيئة المصرية ١٩٨٢ م .

ولا شك عندى فى أن محمد بن الحسن الذى ذكره السرقسطى هو ابن در يد ، و يؤكد زعمى هذا إشارة السرقسطى إلى شصار وهو رئى خنافر بن التؤم الحميرى ، الذى لا يعرف حديثه إلا من قبل ابن در يد (١٧) .

بل إننى أرى أن هذه المقامة والمقامتين التاليتين التى تنتهى جميعا بأبيات شينية و يلوح عليها الطابع البدوى تدور جميعا فى جو أحاديث ابن در يد .

ولن تكتب الكلمة الأخيرة فى شأن هذه الأحاديث أو المقامات إلا حين يتم الوقوف على أصولها التى أرى أن مصدرها إن لم تكن قد كتبت فى جزء مفرد ، سيكون بعض كتبه المفقودة ككتاب المقتنى (١٨) أو الملاهى (١٩) أو كتابه الأخبار المنثورة الذى لم تبق منه إلا أوراق محفوظة بالمكتبة الخالدية بالقدس (٢٠)

---

(١٧) راجع الإصابة فى تمييز الصحابة : ٣/١٧١ بتحقيق الدكتور طه الز ينى حيث يقول ابن حجر : « خنافر بن التؤم الحميرى ، كان كاهنا من حمير ، ثم أسلم على يد معاذ بن جبل وله خبر حسن من أعلام النبوة فى إسناده مقال ، ذكره أبو عمر قلت : وذكره الأزدى ، وقال إسناد خبره ضعيف ، انتهى . ووجدت خبره فى الأخبار المنثورة لابن در يد ، قال : أخبرنى عمى ، عن أبيه عن ابن الكلبى عن أبيه ، قال : كان خنافر بن التوأم كاهنا . . » ، وانظر قول ابن عبد البر فى الاستيعاب ٣/٢١٦ (على هامش الاصابة) « خنافر بن التؤم الحميرى ، كان كاهنا من كهان حمير ، ثم أسلم على يدى معاذ باليمن ، وله خبر حسن فى أعلام النبوة ، إلا أن فى إسناده مقالا ، ولا يعرف إلا به » ، وراجع خبره كاملا فى أمالى القالى ١/١٦٩ ، ومن عجب أن الدكتور زكى مبارك لم يعد هذا الخبر بين أحاديث ابن در يد التى رواها القالى فى أماليه مع وقوفه عليه فى الأمالى وإنكاره له فى حديثه عن النثر الجاهلى ، إذ عدّه منقولا عن ابن الكلبى ، راجع : النثر الفنى : ١/٣٩ .

(١٨) ولعله عارض فيه عمله فى « المجتنى » فعلى حين جمع فى المجتنى ما سمع على شيوخه دوّن فى هذا أخبارا من عنده .

(١٩) ذكره ابن قاضى شهبة فى طبقات النحاة واللغو يين ص ٨٤ ، وربما كان تحر يفا لكتابه « المتناهى » .

(٢٠) هى أوراق متفرقة من القسمين الرابع والخامس برقم ١٥ مهمل « دشت » وعنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٩١٣ أدب ، عنوانها « الأخبار المنثورة المرو ية » ولعلها غير أخبار ابن در يد التى ذكر بروكلمان (٢/١٨٤) أنها تقييدات لغو ية فى أر بعة أبواب ، ومنها نسخة بدار الكتب المصر ية تحت رقم « ٦ لغة ش » بخط محمد بن محمود الشنقيطى ، وعنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية (١٢ أدب) وأخرى بمكتبة كلية الآداب بالإسكندر ية (١٠م) . ومن أخبار ابن در يد أيضا نسخة بمكتبة رئيس الكتاب (رقم ٢٢٩٦٧) وعنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية (١١ أدب) وأخرى بمكتبة جامعة القاهرة (٨٧٩) وتتفق النسختان فى أنها مجموعة أوراق رقم فى صدرها « من أخبار أبى بكر بن در يد » ولعله تعليق من هذه =

ولكنه على كل حال لن يكون وقفا على أمالى القالى (٢١) .

= الأخبار يختلط فيه الطابع الإخبارى بالدرس اللغوى ومما ورد بها حديث زواج عثمان بن عفان رضى الله عنه بنائلة ، ولم يخل من إشارات تفتقر إلى الاحتشام ، وحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه والبطريق و يضيف إلى ذلك دراسات لغوية تهتم اهتماما خاصا بالحروف ، كالحروف التى تقع مستعارة ، والحروف التى جوزتها العرب أو غلطت فيها .
وتحتفظ مكتبة الزاوية الحمزاوية تحت رقم ٢٢٦ بمجموعة صغيرة تحمل عنوان « ذكر نسب أبى بكر بن دريد وجمل من أخباره » ، حيث يرد ذكر نسبه عن ابن هشام اللخمى ، ثم يتحدث عن مولده وشيوخه ، و يتعرض لشرح بعض قصائده ، ثم تظهر أوراق من رحلة يرد فيها ذكر نيل مصر ومدينة دمياط وبحيرة المنزلة ، ولغتها ترجح أنها لبعض المتأخرين وليست من كلام ابن دريد .
و يذكر فؤاد سزكين بين أعمال تلميذه أبى مسلم محمد بن أحمد بن على بن الحسين البغدادى « الجزء فيه الفوائد والأخبار عن أبى بكر بن دريد » وهو بين مقتنيات المكتبة الظاهرية ، وقد أرسلت فى طلبه فلم أحظ برد ، راجع : تاريخ التراث العربى ١/٥٣٤ (بتعريب دكتور فهمى ابو الفضل ومراجعة دكتور محمود فهمى حجازى الهيئة المصرية ١٩٧١ م .)

(٢١) راجع أيضا « فحولة الشعراء » الذى يرويه ابن دريد عن الأصمعى ، وتبدو فيه روح الصنعة ، ولعله أوحى للبديع بمقامته عن الشعراء ، وأرى أثره جليا فى مقامة ابن شرف النقدية ، ومقامة الشعراء للسرقسطى ، والمقامة القرطبية ، وماجرى مجراها ، إذ مضت جميعا على نسق هذا العمل ، (فحولة الشعراء للأصمعى ، شرح وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجى وطه محمد الزينى ، القاهرة ، المطبعة المنيرية بالازهر ، الطبعة الأولى ١٣٧٢ هـ/١٩٥٣ م)

(٢) بديع الزمان الهمذانى
(٣٥٨ــ٣٩٨ هـ)

أحمد بن الحسين يحيى بن سعيد الهمذانى ، علم لا ينكر فى تاريخ أدبنا العربى ، ينتمى إلى أسرة عربية استوطنت همذان كما يظهر من قوله فى إحدى رسائله (٢٢) :

« ... إنى عبد الشيخ ، واسمى أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المورد ومضر المحتد ... »

و يبدو أن البديع لم يكن محبا لهمذان ولم ترق له الاقامة بها ، يظهر ذلك من قوله فى رسالة إلى أستاذه ابن فارس (٢٣) :

« واثنتان ــ أيده الله ــ قلما تجتمعان ، الخراسانية والإنسانية ، وإنى وإن لم أكن خراسانى الطِّينة ، فإنى خراسانى المدينة ، والمرء من حيث يوجد ، لا من حيث يولد ، والإنسان من حيث يثبت ، لا من حيث ينبت فإذا انضاف إلى خراسان ولادة همذان ، ارتفع القلم ، وسقط التكليف فالجرح جبار ، والجانى حمار ، ولا جنة ولا نار ، فليحتملنى الشيخ على هناتى ، أليس صاحبنا يقول :

لا تلمنى على ركاكة عقلى   أن تيقنت أننى همذانى »

---

(٢٢) يظن بعض الكتاب المحدثين أنه فارسى الأصل ، ومن ذلك قول جورج غريب « والبديع رغم أصله (كذا) الفارسى يؤثر العرب على العجم و يطعن على الشعوبية وهو ذو عقيدة دينية صحيحة ، ومن المتشيعين للعلويين » ، العصر العباسى : ١٢٥

(٢٣) رسائل البديع : ٢٥٣ ، و يتيمة الدهر للثعالبى : ٤/ ٢٧١ بتحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ/١٩٧٣ م .

لذا نراه يقصد الرى وهو فى مقتبل الشبيبة (٢٤) ، فيرد حضرة الصاحب و يتزود من ثمارها وحسن آثارها ، بعد أن درس على ابن فارس ، واستنفد علمه واستنزف بحره ، وقصد جرجان وعايش الإسماعيلية بها ، ثم تحول عنها إلى نيسابور ، حيث وصل إليها سنة (٢٥) ٣٨٢ ، وهناك أملى مقاماته المشهورة ، وسرعان مانشبت بينه و بين أبى بكر الخوارزمى المعركة الأدبية التى انتهت بالمناظرة المشهورة سنة ٣٨٣ هـ كما ذكر البيهقى فى وشاح الدمية وقد ذكر أبا بكر الخوارزمى فقال (٢٦) :

« وقد رمى بحجر البديع الهمذانى فى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وأعان البديع الهمذانى قوم من وجوه نيسابور» .

وكان أبو بكر الخوارزمى شيخا موقرا وأديبا مبجلا يعتلى عرش البيان فى عصره فكان فى اقتران اسم البديع به كسب كبير ، ولكن المناظرة التى جرت بينهما تظهر ــ كما تأدت إلينا ــ أن البديع انتصر على منافسه انتصارا باهرا . (٢٧) .

يقول الثعالبى (٢٨) :

« ثم شجر بينه و بين الأستاذ أبى بكر الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريح الهمذانى وعلوّ أمره ، إذ لم يكن فى الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء ينبرى لمعاداته ويجترىء على مجاراته ، فلما تصدى الهمذانى لمساجلته وتعرّض للتحكك به ، وجرت بينهما مقامات ومبادهات (٢٩) ومناظرات ومناضلات وغلّب هذا

---

(٢٤) فى معاهد التنصيص للشيخ عبد الرحيم العباسى . حـ ٣/ ١١٤ بتحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م

(٢٥) فى معجم الأدباء : ٢/ ١٦٦ أنه وصل إليها سنة ٣٩٢ هـ

(٢٦) راجع معجم الأدباء ٢/ ١٧٣

(٢٧) راجع نص المناظرة فى رسائل البديع : ٥٠ ومعجم الادباء ٢/ ١٧٣ والصبح المنبى عن حيثية المتنبى للبديعى ص ٣٤ بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٤ م .

(٢٨) اليتيمة : ٤/ ٢٥٧ ــ ٢٥٨ ، ومعجم الأدباء : ٢/ ١٦٦

(٢٩) من معجم الأدباء وفى اليتيمة : مكاتبات ومباهاة

قوم ، وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكمين والقرنين المتصاولين ، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء » .

وترك البديع نيسابور حيث توجه إلى سجستان ونزل على أميرها خلف بن أحمد الذى مدحه فى ست من مقاماته . ولكنه واصل رحلته حتى انتهى به الأمر فى هراة حيث توفى كهلا فى الأربعين حين أقبلت عليه الدنيا بعد طول إجفال (٣٠) .

لقد بدأ الثعالبى ترجمة الهمذانى بقوله : « هو بديع الزمان ومعجزة همذان » ، ولقد غلبت هذه التسمية على اسمه حتى غطت عليه ، وكان البديع حقيقا بها فقد كان « نادرة الدنيا فى سرعة الحفظ ... كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها و يؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل بمعنى ، و ينظر فى الأربعة والخمسة (الأوراق) (٣١) من كتاب لا يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذها عن ظهر قلبه هذا ، و يسردها سردا » .

وكان فصيحا مفوها وشاعرا مفلقا ، يأتى على البديهية بما يُعْجز بعد طول الأناة بل كان « يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة ، بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع » (٣٢) .

ومهما يكن من أمر نبوغ البديع فسيظل سر خلوده كامنا فى مقاماته التى أبدع فيها ما شاء له الإبداع والتى تعد أقدم نص لدينا تتبلور فيه سمات الفن المقامى .

ومع اعترافنا بنبوغ البديع ، فلم تكن مقاماته طفرة فى تاريخ أدبنا العربى وإنما أنشأها معارضة لأحاديث ابن دريد كما قدمنا ، ولا شك أن البديع وقف على تلك الأحاديث التى تعز علينا الآن ، كما وقف عليها الحصرى والحنفى

---

(٣٠) يقول عنه ابن العماد الحنبلى : « وكانت وفاته بمدينة هراة مسموما ، وقال الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن دوست جامع رسائل البديع : توفى البديع رحمه الله تعالى يوم الجمعة حادى عشر جمادى الاخرة ، قال الحاكم المذكور وسمعت الثقات يحكون أنه مات من السكتة ، وعجل دفنه فأفاق فى قبره وسمع صوته بالليل وأنه نبش عنه فوجده قد قبض على لحيته ومات من هول القبر» ، شذرات الذهب : ١٥١/٣ ،

(٣١) يتيمة الدهر ٢٥٦/٤ وانظر : الصبح المنبى : ٣٤

(٣٢) اليتيمة : ٢٥٧/٤ وانظر : معجم الأدباء : ١٦٥/٢

والسرقسطى ، بل إن هذه الأحاديث كانت أقرب إليه منهم فقد عاش فى بيئة فارسية كما عاش ابن دريد من قبل ، ونضيف إلى هذا ماذكره ياقوت فى ترجمة على بن أحمد الدريدى ، قال (٣٣) :

« يكنى أبا الحسن ، ذكره الزبيدى فقال : أصله من فارس ، وكان وراق ابن دريد وإليه صارت كتب ابن دريد بعد موته » .

فلا شك أن هذا الوراق الفارسى الأصل ، والذى كان خصيصا بابن دريد حتى نسب إليه أذاع كتب الرجل بعد وفاته ، وانتهت فيما وراء العراق حيث عاش البديع .

ولعل البديع قد وضع مقاماته بعد أن طالع أحاديث ابن دريد مباشرة ، فالثعالبى ينص على أنه أملى مقاماته بنيسابور حين اتصل البديع برؤسائها من بنى ميكال الذين أنعموا عليه فى أول عهده بهم ، ولقد كان ابن دريد على صلة وطيدة بأهل هذا البيت كما يظهر من قول الأمير أبى نصر بن أحمد الميكالى (٣٤) :

« تذاكرنا المتنزهات يوما ، وابن دريد حاضر ، فقال بعضهم : أنزه الأماكن غوطة دمشق ، وقال آخرون : بل نهر الأبلّة ، وقال آخرون : بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم : نوبهار بلخ ، فقال : هذه متنزهات العيون فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ فلنا : وما هى يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبار للقتبى ، والزهرة لابن داود ، وقلق المشتاق لابن أبى طاهر ثم أنشأ يقول :

ومن تك نزهته قَيْنة وكاس تُحَثُّ وكأس تصب
فنزهتنا واستراحتنا تلاقى العيون درس الكتب »

وتتعدد الآراء حول مؤثرات أخرى فى مقامات البديع فالسندوبى يرى أن رسالة التربيع والتدوير التى أنشأها الجاحظ فى أحمد بن عبد الوهاب هى التى وجهت النفوس إلى مثل هذا اللون من التعبير وأنها وان لم تكن فى الكدية ففيها

(٣٣) معجم الأدباء : ١٢/٢٢٣

(٣٤) المقامة : ١٥

الدعابة الساخرة وبأسلوب الحوارى الشائق ، وقد تأثرها الخوارزمى فى رسالته إلى أبى الحسن البديعى (٣٥)

أما الدكتور شوقى ضيف فيرى أن عملا مفقودا من أعمال الجاحظ تحدث فيه عن أهل الكدية حديثا طويلا وقص نوادرهم هو الذى أوحى للبديع أن يدير أغلب مقاماته على الكدية . و يستدل الدكتور شوقى ضيف على هذا بفصل أداه إلينا البيهقى فى كتابه « المحاسن والمساوى » نقلا عن عمل الجاحظ (٣٦) ، و يرتب على هذا أن ابن دريد قد أثر فى البديع من جهة الشكل بينما أثر الجاحظ فيه جهة الموضوع (٣٧) .

وقد التقط عبدالملك مرتاض هذه الفكرة ولكنه ربط بين مقامات البديع وعمل آخر من أعمال الجاحظ هو كتاب البخلاء ورأى أن الهمذانى قد قص شخصية أبى الفتح الإسكندرى القميص نفسه الذى قص الجاحظ خالدبن يزيد(٣٨) .

غير أنَّ عبدالملك مرتاض أسرف فى القول بأن ابن دريد كان حلقة اتصال بين الجاحظ والبديع وأنه تأثر فى احاديثه بحكايات البخلاء عند الجاحظ أولا ثم أثر فى

---

(٣٥) أدب الجاحظ لحسن السندوبى : ٩٩ ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ١٩٣١ م وراجع فى التربيع والتدوير : الجاحظ حياته وآثاره لاستاذنا الدكتور محمد طه الحاجرى : ٢٧٥ — ٣٨٣ . القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

(٣٦) المحاسن والمساوى المنسوب الى البيهقى : ٢/٤١٠ (محاسن السوال) وانظر ٤١٢ (أصناف المكدين وأفعالهم) ، ٤١٧ (ومن نوادرهم) بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ١٣٨٠ هـ/١٩٦١ م .

(٣٧) المقامة : ٢٠

(٣٨) القصة فى الأدب العربى القديم : ١٨٤ وقد ترجم ياقوت لخالد بن يزيد بقوله : « مولى بنى المهلب ، و يقال له خالويه المكدى كان أديبا ظريفا بلغ فى البخل والتكدية وكثرة المال المبلغ الذى لم يبلغه أحد ، وكان متكلما بليغا قاصا داهيا ، وكان أبو سليمان الأعور وأبو سعيد المدائنى القاصان من غلمانه ، وله أخبار حسان ومن لطائفه وصيته لابنه عند موته ، وفيها لطائف وغرائب وهى طويلة تقع فى كراسة ، معجم الأدباء : ١١/ ٤٢ و يرى أستاذنا الدكتور طه الحاجرى أن الجاحظ أجرى هذا الحديث على لسانه ، البخلاء : ٣٠٤

البديع(٣٩) وهذا أمر لايمكن التدليل عليه ، وليس مما يجافى المنطق أن يتأثر عمل أدبى بعملين سبقاه مباشرة دون أن يتأثر أحدهما بالآخر .

ومما آخذه عليه أيضا أنه لرغبته العارمة فى إبراز دور بخلاء الجاحظ أهمل دور كليلة ودمنة بدعوى أنه أدب دخيل على العربية ، ولم يعجب به العرب ، ومن آياته على ذلك أن أحدا من كتابهم لم ينبر لمحاكاته(٤٠) .

ولا يخفى مافى هذا القول من مخالفة للواقع ، فلقد كان كليلة ودمنة ولا يزال ، موضع إعجاب العرب ، وكان الجاحظ نفسه معجبا بكليلة ودمنة متأثرا به ، ولا أحب أن أذهب بعيدا فأقول إنه أنشأ كتابه الحيوان متأثرا به على نحو من الأنحاء ، وعلى أية حال ففى حيوان الجاحظ مايشهد بأنه كان معجبا به و بأن الكتاب كان ذائع الصيت متداولا بين فتيان الكتاب على عهده(٤١) ، وليس سرا أن كليلة ودمنة أحدث حركة أدبية لها شأنها فى الأوساط الأدبية العربية لأمد بعيد ، ففى عهد مبكر نقله أبان بن عبدالحميد شعرا وجاء شعره رائقا حتى قيل إن كل كلام نقل إلى شعر فالكلام أفصح منه إلا كتاب كليلة ودمنة ، وقيل إن يحيى البرمكى وهبه لذلك عشرة آلاف دينار(٤٢)

وفى وقت مبكر أنشأ سهل بن هارون(٤٣) كتابه ثعلة وعفرة الذى حاكى به كليلة ودمنة(٤٤) ، و يتنافس الشعراء والكتاب بعد ذلك فى هذا المضمار فيضع أبوعبدالله اليمنى نزيل مصر المتوفى فى نهاية القرن الرابع (٤٠٠ هـ) كتابه

---

(٣٩) القصة فى الأدب العربى القديم : ١٤٩ ، ١٨٧

(٤٠) القصة فى الأدب العربى القديم : ١٤٩ ، ١٨٧

(٤١) الحيوان للجاحظ ٦/ ٣٣٠ بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مصطفى الحلبى الطبعة الثانية (١٣٨٤ ــ ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٥ ــ ١٩٦٨ م) .

(٤٢) أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق للصولى : ٢ ، عنى بجمعه ج . هيوارث دن ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية (أبان) ١/ ١٦ ، وقد توفى أبان اللاحقى سنة ٢٠٠ هـ .

(٤٣) توفى سنة ٢١٥ هـ .

(٤٤) معجم الأدباء ١١/ ٢٦٧ وانظر النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه للدكتور عبد الحكيم بليع ص ١٧١ ، القاهرة مكتبة وهبة ، مطبعة الاستقلال الكبرى . الطبعة الثالثة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م

« معناهاة أمثال كتاب كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب »(٤٥) ، و يضع ابن العبار ية (ت ٥٠٤ هـ) منظومتين ، إحداهما « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » والأخرى « كتاب الصادح والباغم » كما نظمه ابن مماتى (ب٦٠٦ هـ)(٤٦)، وقبل هذا وضع إخوان الصفا رسالتهم المشهورة « الحيوان والإنسان » ، كما وضع أبوالعلاء المعرى رسالة « الصاهل والشاحج » وكتابه « القائف »(٤٧) الذى مازال مفقودا أوفى حكم المفقود ، وقد قرظه الكلاعى ، فقال : (٤٨)

« ولأبى العلاء المعرى فى كتاب القائف إحسان مشهور ، وإبداع كثير موفور ، وهو أكثر من كليلة ودمنة ورقا ، وأفسح طلقا وأطيب شميا وعبقا » .

ولماذا نذهب بعيداً وقد اعترف ابن بطلان فى صدر مقامته الطو يلة « دعوة الأطباء » أنه أنشأها على مذهب كليلة ودمنة .

وربما تأثر البديع أيضا وهو من ذوى اللسانين بأعمال فارسية أخرى تشبه كليلة ودمنة ـ ككتاب السندباد(٤٩) ـ ولكننا لانستطيع أن نذهب بعيداً مع الدكتور أمين عبدالمجيد بدوى حين يقول دون تعليل مقنع : (٥٠)

« إن فن المقامة العربية يرجع فى تأليفه إلى أصول هندية فارسية » أومع توماس شنرى T. Chen ery حين يرى أن البديع قد استوحى مقاماته من أساطير التوارة عند اليهود أوقصة لقمان والهستوباداسا Histopadasa فى اللغة السنسكر يتية ثم البهلو ية(٥١)

ولكن ب أن أتوقف هنا قليلا لأبرز دور رجلين كان لهما فيما أحسب أثرهما

---

(٤٥) سمه محمد بن الحسين بن عمر ، راجع طبقات النحاة واللغو يين ص١٠٤ ، وقد حقق الدكتور محمد يوسف نجم هذا الكتاب ونشره بعناية دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦١م .

(٤٦) راجع القصص الحيوانى وكتاب كليلة ودمنة فى الآداب الشرقية والغربية لحامد عبدالقادر ص٣٩ ـ ٤٧ ، القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربى ١٩٥٠م .

(٤٧) راجع نصا منه فى كتاب العصا لأسامة بن منقذ : ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٤٨) إحكام صنعة الكلام : ٢١٠

(٤٩) انظر على سبيل المثال فى الفهرست : ص٤٣٩ كتاب ترجمة نوادر أهل الشرف ، ونوادر أوساط الناس ، ونوادر السفلة والوضعاء .

(٥٠) القصة فى الأدب الفارسى : ٣٣٤ ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م .

(51) The Assemblies of Hariri, P. 32

وانظر بديع الزمان للشكعة : ٢١٣

فى عمل البديع أما أولها فهو الأصمعى عبدالملك بن قريب الراوية اللغوى الذى انفق الشطر الأكبر من حياته متنقلا فى البوادى يتتبع الأعراب فيكتب ألفاظهم و يدون أخبارهم حتى اشتهر بينهم بذلك(٥٢) وتجمع له منه سيل هائل دونه فى كتاب ضخم سماه «نوادر الأعراب» ولقد ضاع هذا الكتاب فيما ضاع من تراثنا الأصيل ، ويمكن أن يعزى إلى هذا الكتاب كثير مما رواه ابن دريد عن الأصمعى وأدته لنا أمالى القالى وغيرها .

ومع ما تحققه نوادر الأعراب من الفوائد العلمية المتمثلة فى المعارف اللغوية ، والمتعة الفنية المتمثلة فى طرافه الخبر والنادرة كما لحظ الجاحظ(٥٣) .

«إنه ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ، ولا ألذ فى الأسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء ، والعلماء البلغاء .... »

فإن شخصية الأصمعى وملكته الأدبية تلوحان فى كثير مما يروى عنه ، حتى لانستطيع أن نقرر أن هذه الأحاديث جميعا وقعت كما رواها ، فلاشك فى أنه أضاف إليها من عنده رغبة فى تحسين الخبر وحبك الحكاية ، ولعل بعضها كان من صنعه هوونسج خياله(٥٤) ، ويمكن أن نرى ذلك واضحا فى النادرة التالية(٥٥) :

«قال الأصمعى : طلعت من جامع البصرة ، فطلع علىّ أعرابى ، فقال : من الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع ، قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه من آيات الرحمن ، قال : اتل علىّ ، فتلوت (والذاريات) ، فلما بلغت قوله : (وفى السماء رزقكم وماتوعدون) ، قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ، وقسمها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى قوسه وسيفه وكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ، فإذا أنا بمن تهيف بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالاعرابى قد نحل واصفرّ ، فسلّم علىّ واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح

---

(٥٢) المزهر: ٢/٣٠٥ــ٣٠٨

(٥٣) البيان والتبيين ١ [illegible]

(٥٤) الأصمعى . [illegible] ٢٦٦

(٥٥) [illegible] ١٥٣ [illegible] «المقامات» [illegible]

وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال وهل غير هذا ؟ فقرأت : (فورب السماء والأرض إنه لحق) فصاح وقال : ياسبحان الله ، من الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدقوه بقوله حتى الجأوه إلى اليمين ! قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه »

لمثل هذا يذهب الدكتور عبد الجواد الجومرد إلى أن الأصمعى قد تولدت عنده ملكة صنع النادرة على شكل قصة صغيرة ينسبها إلى الأعراب و يودع فيها شيئا مما حفلت به ذاكرته من روائع اللغة والأدب والشعر (٥٦) ، وأن هذا دفع بعض الأدباء المغمورين على مر الأجيال إلى اصطناع النوادر، وادعاء نسبتها إلى الأصمعى طلبا لرواجها بين الناس (٥٧) ومن أوضح الأمثلة على هذا قصة عنترة التى يظهر فيها الأصمعى راو يا بلغ من الكبر عتيا (٥٨) .

ولذلك كله نذهب مع الدكتور عبد الجواد الجومرد إلى القول بأن الأصمعى أثر فى مدرسة المقامات كما أثر فى غيرهم (٥٩) .

أما الرجل الآخر وهو أبو المطهر الأزدى فأقرب عهدا إلى البديع إذ عاش فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى ، وقد وضع كتابه الموسوم بحكاية أبى القاسم البغدادى ليصور الجانب اللاهى العابث من الحياة البغدادية فى ذلك العهد .

و يشبه أبو الفتح الإسكندرى بطل المقامات البديعية أبا القاسم البغدادى فى عدة أمور منها الكنية التى استعيض بها عن التصريح بالاسم ، ثم نسبة كل منهما إلى بلد بعينه ، وأشد من هذا أنهما بطلان خياليان وإن زعم أبوالمطهر أن بطله شخصية حقيقية عايشها فترة من الدهر (٦٠) .

وإذا كان أبوالفتح الإسكندرى قد جبل على الخبث والدهاء والاحتيال ، فقد ضرب أبوالقاسم بسهم فى ذلك كله ، فهو يدارى أهل المجلس ويخدعهم عن نفسه

---

(٥٥) الأصمعى : ٢٦٨

(٥٧) الأصمعى : ٣٢٤

(٥٨) الأصمعى : ٣٢٥ و بروكلمان (معرب) : ٢/١٤٨

(٥٩) الأصمعى : ٢٧٢

(٦٠) النثر الفنى : ١/٤١٧ ، والنثر الفنى وأثر الجاحظ فيه : ٣٠٤ــ٣٠٥

متظاهرا بأنه من أهل التقى والعفاف ، حتى إذا لمس فيهم الرغبة فى الهزل انقلب شيطانا ماردا عالما بفنون الخلاعة وضروب المجون(٦١) .

و يبدو أن تأثر البديع بأبى المطهر لم يقف عند رسم جوانب شخصية بطله بل تعداه إلى بعض مواد كتابه فالتشاتم الذى جرى بين الإسكندرى و بعض بنى ساسان فى المقامة الدينارية له شبيه فى حكاية أبى القاسم البغدادى ، وفى رسالة الخوارزمى التى وجهها إلى أبى الحسن المعروف بالبديهى الشاعر يعبث به(٦٢) ، وسرد البديع لأنواع اللصوص فى المقامة الرصافية شبيه بسرد أبى المطهر لألفاظ الملاحين وألوان المراكب(٦٣) .

ولا شك أن أبا المطهر هو الذى أثر فى البديع والخوارزمى ، فعلى الرغم من الغموض الذى يحيط بحياته فقد صرح فى كتابه بأنه كان شابا ماجنا فى سنة ٣٠٦ للهجرة(٦٤) ومعنى هذا أنه توفى فى منتصف القرن الرابع ، أما الخوارزمى والبديع فقد توفيا فى أواخر هذا القرن ، وقد وضع الأخير مقاماته سنة ٣٨٢هـ كما قدمنا .

و يصرح بديع الزمان الهمذانى فى غير موضع من رسائله أنه وضع أربعمائة مقامة فى الكدية ، يقول :

« رسالة إلى أبى المظفر ولد أبى الحسن البغوى يشكو إليه أباه(٦٥) : ... يبلغنى أن أباه دائم العبث بلحمى ، والتنقل بشتمى ، وأنه حسن البصيرة فى بغضى ، كثير التناول من عرضى ، ولعمر الله إن دم الصديق لا يشرب

---

(٦٠) النثر الفنى فى القرن الرابع : ١/٤١٧

(٦٢) راجع مقامات البديع : ٢١٧ ، وحكاية أبى القاسم البغدادى لأبى المطهر الأزدى : ١١٣ ، ١١٥ (فى وصف الثقيل) ، بتحقيق هيدلبرج ، مطبعة كرل ونتر ١٩٠٢م ، ورسائل الخوارزمى : ٢٣٥ وما بعدها (بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٧٠م) ، وانظر النثر الفنى : ١/٤٢٤ ، بديع الزمان (مارون عبود) : ٣٥ .

(٦٢) راجع مقامات البديع : ١٥٧ ، وحكاية أبى القاسم : ١٠٧ ـــ ١٠٨ وانظر النثر الفنى : ١/٤٢٠

(٦٤) حكاية أبى القاسم البغدادى : ٨٧ ، وانظر النثر الفنى : ١/٤٢٥

(٦٥) رسائل البديع : ٣١٥

على الـر بـق ، ولحـم الور يد لا يصلح للقديد ، والولى لا يقلى ، ولا ينخذ لحمه نقلا بـالـقـدح ، وعلى إملائنا بالجرح ، أويقصر سعيه و يتداركه وهنه فيعلم أن من أملى من مقـ ـات الـكـدية أر بعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى وهو لا يقدر منها على عشر حقس ألايهاج (٦٦) لكشف عيوبه ، والسلام » .

يؤكـد هـذا المعـنـى فى رسـالـة أخـرى نـقـض فيها قـصـيـدة لأبـى بـكـر الخوارزمى (٦٧) : « ... وما كـنـت لأكشف تلك الأسرار وأهتك هذه الأستار ، وأظهر منه العار والعوار ، لولا ما بلغنا عنه من اعتراض علينا فيما أملينا ، وتجهيز قدح علـيـنـا فيما رو ينا من مقامات الإسكندرى من قوله إنا لا نحسن سواها ، وإنا نقف عـنـد مـنـتـهـاهـا ، ولـوأنـصـف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات أوعشر مـفـتـر يات ، ثم عرضها على الأسماع والضمائر ، وأهداها إلى الأبصار والبصائر ، فـإن كـانـت تـقـبلها ولا تزجها ، أوتأخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا بالقدح وعلى إمـلائنا بالجرح أويقصر سعيه و يتداركه وهنه فيعلم أن من أملى من مقامات الـكـدية أر بعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظا ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر حقيق بكشف عيوبه ، والسلام »

ولـقـد حق للمعاصر ين أن يتساءلوا ، كيف أمكن للبديع أن يؤلف هذا العدد الـضـخـم من المقامات ؟ ولماذا لم ينته إلينا منها إلا نحو ثمن هذا العدد ، بالرغم من تـعـلـق الـنـاس فى عصره وفى العصور التالية بهذا النوع من التأليف الأدبى ؟ حتى لـقـد نـظـر بـعـضـهـم إلى هـذا الـعـدد بـعين الشك والارتياب ، وهذا مارون عبود يقول (٦٨) :

« ... ولكن هذا غير صحيح ، لم يقل ذلك أحد غير الهمذانى نفسه » .

ولـكـن اعـتـراض مارون عبود من هذه الجهة مردود لأننا نجد الثعالبى معاصر البديع يؤمن على كلامه حيث يقول (٦٩) :

---

(٦٦) فى الأصل : نهاج (تصحيف)

(٦٧) رسائل البديع : ٢٣٦

(٦٨) بديع الزمان : ١٨

(٦٩) اليتيمة : ٤/٢٥٧

« واملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الإسكندرى فى الكدية وغيرها (٧٠) وضمنها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، من لفظ أنيق قريب المآخذ بعيد المرام ، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام ، وجد يروق فيملك القلوب ، وهزل يشوق فيسحر العقول » .

وعبارة الثعالبى تدل على أنه طالع هذه المقامات وأعجب بها إعجابا شديدا ، ولقد نقل ياقوت فى معجمه عبارة الثعالبى (٧١) دون اعتراض على هذا العدد ، ونحن نعرف مقدار معرفة ياقوت للكتب وأصحابها ، وقد عبر صراحة أنه يرى يتيمة الثعالبى أفضل مصدر لترجمة البديع (٧٢) .

ومن جهة أخرى ذكر الحصرى الذى كان معاصرا قريب العهد هو الآخر بالبديع ، ونرجح أنه لم يقف على ترجمة البديع فى اليتيمة (٧٣) ، أنه وضع أربعمائة مقامة ، وقد نقل عددا من هذه المقامات فى كتابه زهر الآداب (٧٤) ، وقد نقل الكلاعى ألفاظ الحصرى فى كتابه إحكام صنعة الكلام (٧٥) كما نقلها عنه ياقوت فى معجمه (٧٦) ، وبهذا أيضا نرد على عبد الملك مرتاض الذى يرى أن الحصرى قد أخطأ فى ذكر عدد مقامات البديع حين ارتآها أربعمائة (٧٧) .

---

(٧٠) انظر مع هذا قول الدكتور شوقى ضيف : « ولم يجعل مقاماته حكايات متنوعة الموضوعات » ، = بل جعلها تدور على موضوع واحد ، وهو الكدية أو الشحاذة الأدبية (عصر الدول والإمارات : ٦٧٠ ، دار المعارف بمصر ١٩٨٠) .

(٧١) معجم الأدباء : ٢/١٦٥ ، وانظر أيضا ١/١٦٦

(٧٢) المرجع السابق : ٢/١٦١

(٧٣) انظر إحكام صنعة الكلام : ١١٩ حيث قال الكلاعى : « وكنت سمعت عن بعض شيوخنا أن الجزء الرابع من كتاب اليتيمة دخل الأندلس مختصرا ، حتى وقفت على ذكر الحافظ (يعني البديع) فيه ورأيته فاستدللت على صحة ماسمعته ورأيته ، فإنه اقتصر فيه على ذكره ، ولم ينبه على جلالة قدره ، وفصاحة نظمه ونثره ، كما فعل أبو منصور عند ذكر غيره »

(٧٤) راجع زهر الآداب : ٣٠٥ ، ٣٤٣ ، ٥١٨ ، ٥٤٣ ، ٦٠٥ ، ٦٨٩ ، ٦٩٢ ، ٧٣٣ ، ٧٨٩ ، ٨٢٣ ، ٨٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٨٨ ، ١٠٤٠ ، ١١١١ ، ١١٣٢ ، ١١٥٤ .

(٧٥) إحكام صنعة الكلام : ١٢٠ ، وانظر أيضا : ١٩٨

(٧٦) معجم الأدباء : ٢/١٦٩

(٧٦) القصة فى الأدب العربى القديم : ١٦٢ ، وانظر أيضا قول الدكتور أنس داود : « وقد اختلف القدماء فى عدد مقامات البديع » مع أنه لم يذكر سوى قولي الحصرى والثعالبى ، وهما متفقان على أنها أربعمائة ، دراسات نقدية ٢٢٣

أما قول بروكلمان (٧٨) : « وبديع الزمان يفتخر في إحدى رسائله بأنه صنف أربعمائة مقامة ، وطبيعي أنه لاينبغي فهم هذا العدد هنا على معناه الحرفي ، فهذا محمد بن شرف القيرواني (المتوفى ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م) ، لم يكد يعرف في كتابه أعلام الكلام ، عشرين مقامة للبديع ، ولكن ينبغي أن يكون عدد المقامات التي أثرت وبقيت لنا وهو إحدى وخمسين مقامة ، قد ثبت منذ زمن طويل ، لأن الحريري عارض هذا العدد بمثله » ، فمردود من عدة جهات ، منها الفارق الشاسع بين أربعمائة مقامة وإحدى وخمسين ، ومنها أن المعارضة لاتعني الالتزام العددي بقدر ماتعني الالتزام بالخصائص الفنية ، ولوعنت ذلك لكان الحريري التزم أن تكون مقاماته إحدى وخمسين ولكان ابن ماري الذي صرح بمعارضة البديع والحريري لم يرتفع بعدد مقاماته إلى الستين ولم يهبط به الحنفي إلى الثلاثين (٧٩) ، ومنها أن قلة ماوقف عليه ابن شرف من هذه المقامات ، إنما يؤكد أن هذه المقامات قد تعرضت ليد العبث والضياع منذ وقت مبكر وأنها قد تأدت إلى الناس متناثرة مفككة الأوصال وهذا واضح في قوله (٨٠) :

« وعددها فيما يزعم رواتها عشرون مقامة ، إلا أنها لم تصل هذه العدة إلينا »

ومع التقدم في الزمن نجد محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، وهو من أعلام القرن السادس يقف على ضعف هذا العدد ، حيث يقول (٨١) :

« وقد أجرينا ذكر المقامات في ذكر بديع الزمان ونبهنا على ماله فيها من

---

(٧٨) بروكلمان (معرب) : ٢/١١٣

(٧٩) وبهذا أيضا نرد على الدكتور محمد رشدي حسن في قوله : « وهناك دليل قوي في مجال العدد الذي ذكرناه ، وهو أن المقامات التي جاءت بعد البديع دارت في فلك الخمسينيات أوأقل ، ولم يصل إلى ستين مقامة تأليفا إلا اليازجي في مجموعة مقاماته : مجمع البحرين » ، تطور فن المقامة (خط) : ٣٩ و يتضح من كلامه إغفاله لمقامات ابن ماري الستين ، أما تطلبه المقامات المفقودة في زهر الآداب للحصري فلا وجه له .

(٨٠) أعلام الكلام : ١٤ بتصحيح عبد العزيز أمين الخانجي (القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م) .

(٨١) إحكام صنعة الكلام : ١٩٨

الإبداع والإحسان ، وأن له أربع مائة مقامة فى غاية الجودة والفخامة والذى وصل إلىّ منها نحو الأربعين » .

ومما يدعو للتأمل أن عدد مقامات البديع ظل موضع اختلاف حتى بين الدارسين المعاصرين ، فهى أربعون عند زكى مبارك (٨٢) ، كما كانت عند الكلاعى ، وهى خمسون عند موسى سليمان (٨٣) وابراهيم على أبوخشب (٨٤) ، وهى واحدة وخمسون عند مارون عبود (٨٥) وعمر فروخ (٨٦) و بروكلمان فى قوله السابق ، واثنتان وخمسون فى موضع آخر (٨٧) ، ثم هى اثنتان وخمسون أيضا عند مصطفى الشكعة (٨٨) .

وأنا لا أتحرج من إضافة مناظرته مع الخوارزمى إلى جملة مقاماته المعروفة التى تأدت إلينا لتصير ثلاثا وخمسين مقامة .

ولعل من أطرف الآراء فى تعليل هذا العدد والاختلاف حوله قول عمر فروخ (٨٩) :

« مقامات بديع الزمان إحدى وخمسون — وهى كل ما ألف — ولا أرى أن هذا العدد اتخذ اعتباطا فلعل بديع الزمان لما سمى هذا الفن (المقامات) وكانت كل مقامة مجلسا ، جعله عدد المجالس ، بعدد أسابيع السنة الهجرية ، ولعل الخلاف فى العدد بين الخمسين و بين الواحد والخمسين راجع إلى ذلك فإن السنة الهجرية خمسون أسبوعا ونحو أربعة أيام » .

وهذا رأى تغنينا طرافته عن مناقشته وتفنيده .

و يستبعد عبد الوهاب عزام أن يضيع هذا العدد الضخم من مقامات البديع

(٨٢) النثر الفنى : ١/٢٨١

(٨٣) الأدب القصصى عند العرب : ٢١٣ (بيروت ، مكتبة الدرسة ، ودار الكتاب اللبنانى ، طبعة رابعة ، ١٩٦٩م) .

(٨٤) تاريخ الأدب فى العصر العباسى الثانى : ٥٣٢

(٨٥) بديع الزمان : ٣٥

(٨٦) الرسائل والمقامات : ٢٢ (بيروت ، مكتبة منيمنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م) .

(٨٧) بروكلمان (معرب) : ٢/١١٢

(٨٨) بديع الزمان : ٢٣٠

(٨٩) الرسائل والمقامات : ٢٢

على كلف الناس بها ، و يرى أن البديع إنما أملى أربعين مقامة فى الكدية وحرفت الكلمة إلى أربعمائة ، وتتابع على ذلك النساخ ، وعدّ عبد الوهاب عزام من مقامات البديع التى بين أيدينا خمسا وثلاثين مقامة فى الكدية ، وتصور أن البديع عد خمسا أخرى من مقامات الكدية ، وعلى هذا يرى أن البديع أملى أربعين مقامة بنيسابور، ثم أضاف إليها الأخريات بعد ذلك ، ومنها المقامات الست التى مدح بها الأمير خلف بن أحمد الذى اتصل به بعد خروجه منها (٩٠) .

ومع أن أحد تلاميذ عبد الوهاب عزام وهو مصطفى الشكعة ، قد رد عليه رأيه هذا بقوله (٩١) :

« وهذا رأى يقوم على الاستنتاج المعقول والمنطق الهادىء ولكن و برغم ذلك ما الذى يمنع من أن يكون بديع الزمان قد كتب أربعمائة مقامة بالفعل ولدينا من قدرته الخارقة وذكائه النادر الشواهد الكثيرة التى تثبت تلك القدرة ، هذا بالإضافة إلى أن كثيرا من الكتب القيمة لأئمة الفكر والأدب من أمثال الجاحظ وأبى حيان والدنيورى والبلخى وغيرهم قد ضاعت مع فرط حرص الناس عليها ، والمقامات بجانب هذه الكتب لا تعد أمرا خطيرا »

فإن شوقى ضيف تبنى رأى عبد الوهاب عزام فقال (٩٢) :

« و يصرح الحصرى بأن بديع الزمان أنشأ أربعمائة مقامة ، ومن قبله صرح بذلك الثعالبى فى اليتيمة ، بل صرّح به بديع الزمان فى بعض رسائله ، وربما كان ذلك غلطا من ناسخ الرسائل ، فمجرد معارضة بديع الزمان لابن دريد فى احاديثه يقتضى أن تكون أحاديثه أو مقاماته أربعين أيضا ، و يظهر أنه صنع فى نيسابور أربعين مقامة فقط ، ثم رأى أن يزيد عليها مقامات أخرى بعد مبارحته لها ، فزاد ستا فى مديح خلف بن أحمد فى اثناء نزوله عنده ، كما زاد خمسا أخرى ، و بذلك أصبحت المقامات نيفا وخمسين » .

ومع هذا أدّعى أن البديع قد وضع أربعمائة مقامة ، ثم أضاف إليها بعد ذلك مقاماته فى خلف بن أحمد وغيرها كمقامته الحمدانية التى يذكر الحصرى أنه

(٩٠) مجلة الرسالة : العدد ٤٥ المجلد الثانى للسنة الثانية : ص٨٢٤

(٩١) بديع الزمان : ٢٣١

(٩٢) المقامة : ١٧

أنشأها سنة ٣٨٥ هـ لأسباب أجملها فيما يلي :

* اتفق القدماء مع البديع على أنه أملى بنيسابور أربعمائة مقامة ، ولم يصرح أحد منهم بالشك فى هذا العدد أو يلمح إليه .

* يذكر البديع أن إملاءه المقامات كان بيد البغوى و بيد الخوارزمى ، وأنهما كانا مشتغلين بالنقض عليه فيما أملاه ، وهذا يمنعه من المغالاة فى عدد مقاماته خاصة حين يجرحهما فيما يكتب ، ولم يحفظ لنا عن البغوى أو الخوارزمى مايرد هذه الدعوى ، ومن جهة أخرى تدل كتابة البديع فى حياة الخوارزمى على أن هذا العدد قد اكتمل له فى وقت مبكر ، إذ مات الخوارزمى فى السنة التالية لمناظرتهما المشهورة .

* ينقل عبد الرحيم العباسى نص الثعالبى دون أن يعلق عليه (٩٣) ، ثم ينقل عن مقامات البديع فيورد مقامته البغدادية وقد عدها السادسة ، وهذا يوحى بأن مقامات البديع كانت بحوزته كاملة (٩٤) .

* لم يعمر البديع إذ عاجلته المنية فى الأربعين من عمره ، وكان له حساد ، ولعل هذا كان سببا فى ضياع الكثير من مقاماته ، كما ضاع غيرها من تراثنا الأصيل ، وكما يظهر أيضا فى آثار البديع الأخرى ، فالديوان الضئيل الذى جمع له لايفى بما ذكر عن وفرة نظمه وترجمته للأشعار الفارسية إلى العربية ، ولا ينهض بما حفظ لنا عن قدرته الفائقة على النظم على البديهة ، وكما هو الحال أيضا بالنسبة إلى رسائله التى لم يتمكن من جمعها فجمعها بعد موته أبو سعيد عبدالرحمن بن دوست كما يخبرنا ابن العماد الحنبلى (٩٥) .

* و يدل على هذا أيضا أن هذه المقامات لم تتأد إلى الناس جملة واحدة ، فلم يقف معاصرو ابن شرف القيروانى فى القرن الخامس إلا على نحو العشرين منها ، ثم تضاعف هذا العدد فى القرن السادس فرأى

---

(٩٣) معاهد التنصيص لعبدالرحيم العباسى : ٣/ ١١٤

(٩٤) هى الثانية عشرة فى نشرة الشيخ محمد عبده

(٩٥) شذرات الذهب لعبدالحى بن العماد الحنبلى : ٣/ ١٥١ (القاهرة ١٣٥٠ هـ) .

الكلاعى منها أربعين ، ولم تزل الزيادة فيما يعرف من هذه المقامات تطرد إلى أن صارت ثنتين وخمسين .

* ولقد جاء بعض هذه المقامات مبتورا أو كالمبتور ، حتى قال مارون عبود : إن البديع وضعها دون استعداد (٩٦) .

وأرى أن هذه المقامات المبتورة تدل على أحد أمرين ، أولهما أن يكون البديع قد وضعها على هذا النحو ، وحينئذ لاعجب فى أن يكون قد وضع أربعمائة مقامة مثلها أوأكثر ، والآخر ، وهذا ماأميل اليه ، أن تكون يدالضياع قد امتدت إلى أطراف هذه المقامات ، كما اجتثت مقامات أخر من أصولها .

وإذا كان عبدالملك مرتاض يقول(٩٧) :

« ... أين هذه الأربعمائة ؟ إن البديع كان يعتبر(؟) كل مقامة بمثابة قصة بمفهومنا نحن المحدثين ، وقد كتب ماينيف عن (كذا) خمسين مقامة لم يكد يغادر شيئا يتصل بحياته (؟) وحياة معاصريه إلاتناوله بالكتابة ناقدا وساخرا ، فماذا يمكن أن يقول فى ثلاثمائة وخمسين مقامة أخرى ، وهو العدد الضخم الذى لم يصل الينا ؟ إنه من السخف أن يحاول محاول أن يزعم أن هذا العدد قد ضاع »

وإذا صرفنا النظر عما فى هذه العبارة من المبالغة والتعميم فى إطلاق الأحكام فإننا نذكر بقول الثعالبى إن مقامات البديع كانت فى الكدية وغيرها ، ونحيل إلى مقامات البديع الموجودة بين أيدينا لنرى كيف اختفى أبوالفتح الإسكندرى فى بعضها وظهر آخرون كبشر بن عوانة ، ونذكّر أيضا بقول الحصرى أنه جعلها مناقلة ، بل نتوقف عند مناظرة البديع للخوارزمى لنرى كيف تحداه أن يكتب كتابا إذا عكست سطوره كان جوابا ، وآخر يخلو من الحروف العواطل ، وثالث إذا قرىء معرجا كان شعرا ، إلى آخر ذلك من الألوان التى سماها الخوارزمى شعبذة . (٩٨)

---

(٩٦) بديع الزمان : ٣٦

(٩٧) القصة فى الأدب العربى القديم : ١٦٣

(٩٨) رسائل البديع : ٥٠ ، والصبح المنبى : ٤٨

وحينئذ نرد على تساؤل عبدالملك بتساؤل آخر : أين هذه الأبواب من القول التى باهى بها البديع الخوارزمى من إنتاج البديع الأدبى ؟ إننا لانجد شيئا منها بين رسائله التى تأدت إلينا ، ولانجدها أيضا فى مقاماته التى بين أيدينا . وإننى أرى هذه الأبواب التى سماها الخوارزمى شعبذة البناء الذى أقام عليه البديع العدد الأكبر من مقاماته ، وهى التى أوحت للحريرى فيما بعد بألعابه اللغوية ، وزخارفه اللفظية بل تبقى لنا نتف فى ديوان البديع لاشك أنها ترجع إلى هذه المقامات المفقودة فمن ذلك معمى فى النعل أوالسفينة (٩٩) :

وشاكية تكذبُ   تئن ولاتتعبُ
مؤخرها مخرج   مقدّمها سبسب
وأولها حية   وآخرها عقرب
تعد ليوم القرى   وساعةَ ماتغضب
وتُركب لكنها   إلى راحة تركب
وتذهب لكنها   إلى الحين لاتذهب
وتُكتب لكنها   بلا تلم تكتب

ولاشك أن مكان هذه الأبيات مقامة من مقامات البديع ، وقد تأثر بها الحريرى فى غير موضع من مقاماته ، نرى ذلك فى المقامة الثامنة المعرية حيث يصف الإبرة وهو يومىء إلى صفات الجارية ، و يصف الميل وهو يومىء إلى صفات الغلام بل تمثلها تماما فى مقامته الثالثة والأربعين « البكرية » حيث جمع بين وصف الناقة والنعل (١٠٠) .

لهذا كله نرى أن الجانب الأكبر من مقامات البديع مازال مفقودا مجهولا ، وأن الكلمة الأخيرة فى عمل البديع لم يحن وقتها بعد ، وكل موازنة بين عمله وعمل الحريرى تعد محاولة قاصرة متعجلة .

بقى لنا أن نذكر رأيا ينفرد به بروكلمان ، إذ يرى أن الخوارزمى قد يكون أسبق إلى عمل المقامات من بديع الزمان (١٠١) :

المزقين بهذه الصناعة .... »

(٩٩) ديوان البديع : ١٠ وانظر أيضا معمى فى الكرسى ص ٩ وآخر فى الوسادة ص ١٠ (القاهرة ، مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ/١٩٠٣م)

(١٠٠) مقامات الحريرى : ٤٧٩

(١٠١) بروكلمان (معرب) : ١١٢/٢

« وبديع الزمان الهمذاني مبتكر فن المقامات في الأدب العربي إذ لم يكن منافسه الخوارزمي هو الذي [illegible] في ذلك »

ويبني بروكلمان رأيه هذا على وجود مقامات يبرز فيها عيسى بن هشام كما في مقامات بديع الزمان الهمذاني مع نسخة بايزيد رقم ٢٦٤٠ من رسائل الخوارزمي (١٠٢)

ومع أنني لم أطلع على هذه النسخة وقد أرسلت فى طلبها للتحقق من صحة ذلك ، فإنني أكاد أنكر أن يكون أبوبكر الخوارزمي قد كتب مقامات على نحوما فرسائل البديع (١٠٣) تشهد بأنه إلى حين كتابتها لم يكن الخوارزمي قد كتب شيئا على هذا النحو، ولقد تحداه البديع أن يروض طبعه على خمس مقامات أوعشر مفتريات ، ولاأحسب أن هذا الشيخ الكبير قبل أن ينساق وراء هذه الدعوة المتحدية من هذا الشاب المفتون بنفسه ، ومما يخالف طبائع الأشياء أن يترّب الخوارزمي على عمل المقامات و يقلل من شأنها ثم يجرى جواده فى مضمارها ، ولوتصورنا أنه فعل لماقبل أن يستعير اسم راو يته .

إن أحدا غير بروكلمان لم يذكر أن للخوارزمي مقامات ، كما أن رسائله التى طبعت مرارا لاتحمل بين أوراقها مقامات أومايشبه المقامات ، وأغلب الظن أن تكون هذه المقامات التى تضمها أوراق نسخة بايزيد مع رسائل الخوارزمي بعضا من مقامات بديع الزمان المفقودة ، فقد كان الخوارزمي يحتفظ بها ولعابنقدها ، ولعلها انضمت إلى أوراق رسائله أولعل هذه النسخة من رسائل الخوارزمي كانت بحوزة البديع خاصة وقد ذكر بروكلمان أن جامع هذا المخطوط قد عاب أشعار الخوارزمي عيبا شديدا(١٠٤) .

وممن نسبوا أيضا إلى عمل المقامات أونسبت إليهم أعمال مقامية أبونصر عبدالعزيز بن محمد بن نباتة المعروف بابن نباتة السعدى ، وقد ترجم له الثعالبى فى شعراء بغداد ، فقال (١٠٥) :

---

(١٠٢) بروكلمان (معرب) : ١١١/٢

(١٠٣) رسائل البديع : ٢٣٦

(١٠٤) بروكلمان (معرب) : ١١١/٢

(١٠٥) يتيمة الدهر : ٣٧٩/٢

« من فحول شعراء العصر وآحادهم ، وصدور مجيديهم وأفرادهم الذين أخذوا برقاب القوافي ، وملكوا رق المعاني ، وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام ، مستمر النظام يشتمل على غرر من حر الكلام كقطع الروض غبّ القطر وفقر كالغنى بعد الفقر ، و بدائع أحسن من مطالع الأنوار ، وعهد الشباب ، وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب » .

وربما كان ابن نباتة مولعا بالقصص ، فما يروى له فى نظم مثل من كليلة ودمنة قوله (١٠٦) :

أحسد قوما عليك قد غلبوا   وكلّ من بادر المنى غلبا
وكنت كالكرم فى تكرّمه   تلتف أوراقه بما قربا

ومع هذا يبدو أنه لم يتخط ذلك ، فشهرة الرجل تعود إلى جودة شعره الذى توفر عليه ، ولم أجد فى ترجمته مايدل على اشتغاله بغيره من فنون الأدب ، غير أن بروكلمان ذكر أن ابن نباتة خلف مقامة مازالت مخطوطة فى برلين : ٨٥٣٦ (١٠٧) ، وكما هى العادة تناقل باحثونا قوله وعدوه قضية مسلما بها (١٠٨) ، وعمدوا إلى صوغ عباراتهم بما يخلع عليها سمة الذاتية ، وأهملوا الإشارة إلى مصدرهم ، موحين بأنهم تثبتوا مما ذكروا ، بل لقد توسع بعضهم فى الأمر كما فعل ابراهيم على أبوخشب فعد ابن نباتة السعدى من كتاب المجموعات المقامية ، قال : (١٠٩) :

« فعمل مقامات ، ولكنه لم يبلغ شأو البديع ، ولم تشتهر مقاماته »

على أن أحدا من هؤلاء جميعا لم يقف على هذه المقامة أوالمقامات التى تحدث

---

(١٠٦) المرجع السابق : ٣٩٤/٢

(١٠٧) بروكلمان (معرب) : ١١٦/٢

(١٠٨) انظر على سبيل المثال : فى القصة والمقامة : ٣٣ ، رأى فى المقامات : ٣٤ ، المقامة : ٧٦ الأدب القصصى عند العرب : ٢٠٩ ، مقامة نويسى : ٣١ .

(١٠٩) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى : ٥٣٢

عهد الطمسان . لغ . ولقد وقفت مؤخرا على نسخة مصورة من هذه المقامة بعد أن

تفضل الدكتور حورج [illegible] بإهدائها إلى مربى ، صدر أولاهن

الطريق إلى . والنظرة الأولى إلى هذه المقامة تبعث الشك فى نسبتها إلى ابن بباته السعدى أو إلى أحد رجال عصره أو بيئته المشرقية ، وتوحى أنها كتبت فى عهد متأخر ، فهى تسعى فى بعض أجزائها إلى تقليد المقامة الحصيبية و بعض المقامات الحريرية التى تشبهها وهى تحمل من أوصاف الأنهار والأطيار والأزهار والرياض ملامح أندلسية واضحة ، فإذا طالعنا المقامة ووصلنا إلى المخلص المدحى الذى تهدف إليه تأكد لنا ذلك ، فالكاتب يصرح باسم ممدوحه الذى يقول فى حقه :

« قاضى القضاة ، وموئل العفاة ، لسان الحقيقة و يدها ، شهاب الشريعة ومحمدها ، الشهاب المستنير لشمس العلاء على شمس السماء أبوعبدالله محمد ابن أبى العباس أحمد الخليق بالصدور والقلوب ، من المجالس والمواكب ، فى النزول والركوب ، المستضاء به الغرب والشرق ، الحلاحل الحاوى يافعا سبقات السبق »

وربما كان هذا الممدوح اسما غامضا فى تاريخنا الأدبى والسياسى ، غير أن صاحب النجوم الزاهرة قد نص عليه صراحة حين تعرض للحديث عن عبد المؤمن ابن على صاحب المغرب فى وفيات سنة ٥٥٨ هـ ، فقال (١١٠) :

« ذكر العماد الكاتب الأصفهانى فى كتاب الخريدة أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبى العباس لما أنشده :

ماهزَّ عطفيه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

أشار إليه بأن يقتصر على هذا البيت ، وأمر له بألف دينار .... »

فإذا رجعنا إلى العماد الكاتب (١١١) فى خريدته وجدنا ترجمة مبتورة تكاد تقتصر على الخبر الذى أورده صاحب النجوم الزاهرة ، إلا أنه يسمى المترجم باسمه

(١١٠) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥/٣٦٣ (القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية) ، وانظر البيت دون عزو فى الكامل فى التاريخ : ١١/٢٤٤ (حوادث سنة ٥٤٤ هـ) .

(١١١) الخريدة/القسم الرابع (شعراء المغرب والأندلس) : ١/١٥٢ ، بتحقيق عمر الدسوقى وعلى عبد العظيم ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، مطبعة الرسالة ١٩٦٤ ، وانظر رايات المبرزين لابن سعيد المغربى ص ١٤٥ بتحقيق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضى ، القاهرة ، مطابع الاهرام التجارية ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣ م

الذى شهر به وهو « محمد التيفاشى » سبة إلى تيماش وهى مدينه تونسية ، وقد قدم على ترجمته ترجمة أوفى لابن أخيه يحيى بن التيفاشى القفصى ذكر فيها أنه من قفصة مدينة بالقيروان ، وأنه انتقل إلى قابس وسكن بها ، وقتله الإفرنج بصقلية بعد سنة خمسين وخمسمائة(١١٢)

ومهما يكن من أمر هذه المقامة بعد ذلك ، فإن كاتبها أديب مغربى أوأندلسى من أهل القرن السادس ، ولايصح فى الأذهان أن تكون من إنشاء ابن نباته السعدى الذى ينتمى إلى القرن الرابع الهجرى .

ولو صحت نسبة هذه المقامة أو غيرها إلى ابن نباتة لكان أولى من البديع بريادة الكتابة المقامية ، إذ كان أسنّ من صاحبه بإحدى وثلاثين سنة ، ومعنى هذا أن ابن نباتة كان شيخا فى الخمسين حين كان بديع الزمان يافعا لم يناهز العشرين من عمره ولم تكتمل فى يديه آلة الكتابة بعد(١١٣) .

(١١٢) الخريدة/القسم الرابع : ١/١٥٠

(١١٣) ولد البديع سنة ٣٥٨ هـ بهمذان ومات بهرات مسموما سنة ٣٩٨ هـ ، على حين ولد ابن نباتة السعدى سنة ٣٢٧ هـ ببغداد ومات بها سنة ٤٠٥ هـ .

الفصل الرابع
المقامات بعد البديع

١ ــ فى المشـــــرق :

إذا كـنـا نستبعد أن تكون للخوارزمى أو لابن نباتة السعدى مقامات سبقا بها بـديـع الـزمـان ، أو قـلـدا بها مقاماته ، فإن المساحة الزمنية القصيرة التى تمتد بينه و بين الحـر يـرى ، الـعـلـم الآخـر الكبير فى عالم الفن المقامى ، تحفل بأسماء كثيرة جرت فى مضمار الكتابة المقامية متأثرة بعمله فى مقاماته أو بأعمال أخرى معاصرة أو سابقة .

و بـعـض هـذه الأسماء يحـيط به غير قليل من الشك (١) ، أما الجمهرة الغالبة فـشخوص لها مكانها فى تاريخنا الأدبى والفكرى ، ومن هؤلاء المختار بن الحسن ابن عـبـدون ، أبـو الحـسـن الـطـبـيب النصرانى المعروف بابن بطلان ، و يبدو أن ابن بـطـلان لم يـوفـق إلى الارتـزاق بصنعته فى بغداد لما كان موسوما به من قبح الهيئة ، فـخـرج عنها إلى غـيـرهـا مـن الـبلاد ، ولكنه منى بالإخفاق ، فانتهى الأمر به إلى أنطاكية حيث التمس العزاء فى الترهب ، كما يوضح ابن العبرى فى ترجمته (٢) :

---

(١) مـن هـؤلاء أبـو الإصـبـع عـبـد العزيز بن تمام العراقى الذى عده بروكلمان من رجال القرن الرابع ، ودكر أن له مقامات فى الكيمياء عليها شرح لمحمد بن تميم مازال مخطوطا بدار الكتب المصـريـة ، ثم ذكـر أن المخـطـوط يحـدد وفـاتـه بـسنة ٧٦٢ هـ ، راجع بروكلمان (معرب) : ٣٢٦/٤ ، ٣٢٧ ، وقد ذكر فى بديعات الزمان : ١٢٩ عن بروكلسان أن له مقامة فى البعث ، وانظر أيضا : رأى فى المقامات : ٣٤ .

(٢) تـاريخ مختصر الدول لابن العبرى : ٣٣١ بعناية الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، (بيروت ، المـطـبـعـة الكاثوليكية . ١٨٩٠م) ، وانظر أيضا إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى : ١٩٢ (بتصحيح السيد محمد امين الخانجى ، القاهرة مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ) ، حيث استعملت ألفاظ ابن العبرى .

« وكان مشوه الخلقة غير صبيحها كما شاء الله منه ، وفضل فى علم الأوائل وكان يرتزق بصناعة الطب ، وخرج عن بغداد إلى الموصل وديار بكر ودخل حلب وأقام بها مدة وما حمدها ، وخرج عنها إلى مصر فأقام بها مدة قريبة واجتمع بها مدة قريبة واجتمع بابن رضوان المصرى الفيلسوف فى وقته وجرت بينهما منافرة أحدثتها المطالبة فى المناظرة ، وخرج ابن بطلان عن مصر مغضبا على ابن رضوان ، وورد أنطاكية وأقام بها وقد سئم كثرة الأسفار وضاق عطنه عن معاشرة الأغمار ، فغلب على خاطره الانقطاع فنزل بعض الأديرة بأنطاكية وترهب وانقطع إلى العبادة الى أن توفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة » (٣)

ومن مؤلفات ابن بطلان كتاب تقويم الصحة الذى نشرت له ترجمة لاتينية فى استراسبورج عام ١٥٣١ م (٤) ، ورسالة اشتراء الرقيق ، والذى يعنينا هنا كتابه « دعوة الأطباء » الذى وصفه ابن العبرى بأنه « مقامة ظريفة » (٥) وقد نشر هذا الكتاب بعناية الدكتور بشارة زلزل فى الإسكندرية عام ١٩٠١ بعنوان « دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة » ، ويختلط الأسلوب المقامى عند ابن بطلان فيه بطبيعة القصص الحيوانى قال فى أوله (٦) :

« هذه رسالة دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة ، تشتمل على مزج يبسم عن جد ، وباطل ينطق عن حق ، وخير القول ما أغنى جده وألهى هزله ، صنفها أبو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للأمير نصر الدولة أبى نصر أحمد بن مروان من أمثال الحكماء وكلام البلغاء ، ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق طريقته وينقاد المتعلم بسهلها إلى تسهيل غرضه فيقرب عليه تناوله ، ويظهر للقارىء فضل الأدباء المهرة وعجز الممخرقين بهذه الصناعة ... »

(٣) فى بديعات الزمان : ١٢٩ ، ورأى فى المقامات : ٣٣ عنها أنه توفى سنة ٤٦٠ هـ وهو وهم .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية : ١/ ٩٩

(٥) تاريخ مختصر الدول : ٣٣١ ، وانظر هذه العبارة أيضا فى : إخبار العلماء ص ١٩٥ .

(٦) دعوة الأطباء لابن بطلان : ٩ (بتصحيح الدكتور بشارة زلزل ، الإسكندرية المطبعة الخديوية ١٩٠١ م) .

ومع أننا نوافق الدكتور إحسان عباس حين نرى أثر المقامة فى هذه الرسالة أشد وضوحا ، فإننا لانؤيده حين يقول (٧) :

« أما ماجاء فى مقدمة الكتاب من أنه صيغ على اسلوب كليلة ودمنة ، فذلك ضرب من الوهم لايثبت للفحص أبداً »

فالنظرة الفاحصة إلى هذا العمل تظهر موافقته كليلة ودمنة فى الشكل ، إذ يقوم فى جملته على عدة مواقف — أو حكايات — يفضى بعضها إلى بعض ، و يسوق سابقها إلى لاحقها (٨) ، وموافقته إياها فى المضمون حين يسعى إلى غاية تعليمية تهذيبية واضحة ، يتجه فيها إلى النقد الأخلاقى ، بالكشف عن طباع الناس وفلسفة مواقفهم فى أسلوب يشغف به الناشئة والعامة ، و يرضى عنه الخاصة .

* وتظهر فى الشام شخصية كبيرة كان لها باع طويل فى فنون الشعر والنثر هى شخصية أبى العلاء المعرى (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ) صاحب « رسالة الغفران » التى يرى شوقى ضيف أنه استلهم فكرتها من المقامة الإبليسية للبديع كما فعل ابن شهيد ، وهو بذلك يبطل نزاع المتخاصمين حول رسالة الغفران والتوابع والزوابع وأيها أثرت فى الأخرى (٩) وشوقى ضيف يصدر فى هذا الرأى عن إلمام واسع بتراثنا الأدبى والفكرى ولايقلل من شأن استنتاجه هذا قول الدكتور درويش الجندى (١٠) :

« على أن هذا الاستيحاء مقصور على الشكل فقط ، فرسالة الغفران من حيث رمزيتها تخالف رمزية المقامات إذ أنها أثر من آثار الضغط الفكرى والخوف من الاتهام بالزندقة والخروج على الدين ، أما المقامات فهى أثر من آثار الضغط الاقتصادى » .

---

(٧) ملامح يونانية فى الأدب العربى : ص ١٦٧ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٧ م)

(٨) راجع قول الدكتور إحسان عباس : « وتتألف دعوة الأطباء من اثنى عشر فصلا ، أو إن شئت فقل من اثنى عشرة مقامة » ملامح يونانية : ص ١٧٠

(٩) المقامة : ٣١ ، عصر الدول والإمارات للدكتور شوقى ضيف : ٦٧٣ (القاهرة دار المعارف ١٩٨٠ م) ، وراجع أيضا المهرجان الألفى لأبى العلاء : ٢٧١ حيث يشير عبد القادر المغربى الى تأثر المعرى بمقامات البديع .

(١٠) الرمزية فى الأدب العربى : ٣١٩ (القاهرة ، مطبعة نهضة مصر) .

ونحن نوافق الدكتورة بنت الشاطىء حين تنكر على بطرس البستانى عد رسالة الغفران والمقامات من جملة الملاحم ، ولكننا لانستطيع أن نذهب معها بعيدا حين تحاول إنكار أوجه الشبه التى لاتنكر بين رسالة الغفران والأعمال المقامية مع أنها اعترفت صراحة بوجود هذا الشبه فى النسيج اللفظى لبعض المواقف من حيث المزاوجة والسجع القصير ، ثم فى تخيل المواقف لعرض فكرة أو مادة (١١) .

وللمعرى رسالة أخرى وضعها قبل رسالة الغفران بخمس عشرة سنة هى رسالة الصاهل والشاحج (١٢) ، يظهر فيها كيف زاوج المعرى بين العمل المقامى والقصص الحيوانى .

ومع هذا كله فأنا أتوقف عند قول ياقوت فى جريدة مؤلفات أبى العلاء : (١٣) :

« كتاب يعرف بالسجع السلطانى ، يشتمل على مخاطبات للجنود والوزراء وغيرهم من الولاة ، وكان بعض من خدم السلطان وارتفعت طبقته ، لا قدم له فى الكتابة فسأل أن ينشأ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، وهو لا يشعر بما يريد ، لقلة خبرته بالأدب ، فألف هذا الكتاب ، وهو أربعة أجزاء ، وكتاب يعرف بسجع الفقيه ، جزء ثلاثون كراسة ، وكتاب لطيف يعرف بسجع المضطرين ، عمله لرجل مسافر يستعين به على أمور دنياه » .

ولو أننا حاولنا إعادة اكتشاف هذا النص لوجدنا أن هذه الكتب المسجوعة ، السجع السلطانى ، وسجع الفقيه ، وسجع المضطرين تنبىء بمحاولات مقامية ، ولعل سجع الفقيه هذا يكون قريبا من عمل الحريرى فى مقامته الثانية والثلاثين ، أما سجع المضطرين فلاشك أنه أقرب هذه الأعمال إلى فن المقامة الذى يقوم على شخصية أديب معوز محتاج جوالة ، يدفعه الاضطرار إلى أن يخادع

---

(١١) رسالة الغفران للمعرى : ٢٩ بتحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ١٩٦٩ م .

(١٢) رسالة الصاهل والشاحج للمعرى ، بتحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، مقدمة المحققة ، ص ٤٢ (القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٥ م) .

(١٣) معجم الأدباء : ٣/١٥٥

الناس عن اشيائهم بأسجاعه وأشعاره . ولعل هذا كله يوافق قول ياقوت : « إنه عمله لرجل مسافر يستعين به على أمور دنياه » .

* وفي النصف الثاني من القرن الخامس يظهر في بغداد (١٤) عبدالله بن محمد بن الحسين بن داود بن ناقيا الأديب الشاعر اللغوى المترسل . وكان ابن ناقيا بارعا في فنون عديدة . اختصر الأغاني في مجلد واحد . ووضع شرحا على كتاب الفصيح . كما ترك ديوان شعر كبيرا وديوان رسائل . وألف مجموعا سماه « ملح الممالحة » وكتاب الجمان في تشبيهات القرآن الذى نشر مرارا (١٥) عن نسخة الأسكوريال ، وهي النسخة الوحيدة المعروفة له حتى الآن ، وبها نقص كبير ، وله مقامات أدبية ذكرها العماد فقال (١٦) :

« وله مقامات أدبية معروفة بين أهل الأدب » ،

وكانت هذه المقامات مشهورة في وقت ابن خلكان والسيوطى (١٧) ، و يشير بروكلمان إلى نسخة وحيدة منها في مكتبة الفاتح (١٨) ، يحتفظ معهد المخطوطات العربية بمصورة لها تحت رقم ٧٧٨ (أدب) (١٩) ، وقد نسخت هذه المقامات سنة ٥٢٩ هـ ، وتذكر قائمة معهد المخطوطات أنها عشر مقامات وقع بأولاها خرم .

---

(١٤) إنباه الرواه : ٢/١٣٣ وفي بغية الوعاة : ٢/٦٧ وطبقات المفسرين للداودى : ١/٢٥٥ بتحقيق على محمد عمر ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، مطبعة الاستقلال ، الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م ووفيات الأعيان : ٦/٩٨ وقيل « عبدالباقى » ولد سنة ٤١٠ هـ وتوفى سنة ٤٨٥ هـ و يظن محمد أبو الفضل إبراهيم أنه قلد الحريرى في مقاماته ، وهذا وهم ظاهر ، راجع مقدمة شرح مقامات الحريرى للشريشى ص ٩ .

(١٥) نشره أحمد مطلوب وخديجة الحديثي في بغداد سنة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٨ م وفيها أيضا نشره عدنان محمد زرزور ومحمد رضوان الداية في الكويت (المطبعة العصرية) ورأى الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى أنهما لم يحققا القراءة الصحيحة للنص — كما تشير جريدة الأخطاء التى ألحقها عبدالوهاب محمد على العدوانى في رسالته التى تقدم بها لجامعة القاهرة عن تحقيق شرح ابن ناقيا للفصيح — فأعاد نشر الجمان ،
وظهرت الطبعة الأولى من نشرته المصرية سنة ١٩٧٤ (الإسكندرية — منشأة المعارف) .

(١٦) الخريدة : العراق : ٢/٢٣٨

(١٧) وفيات الأعيان : ٦/٩٨ ، و بغية الوعاة : ٢/٦٧

(١٨) بروكلمان (معرب) : ٥/٢٤٣

(١٩) قائمة الأدب : ٥٣٠

وقد نشرت هذه المقامات فى استانبول سنه ١٣٣١ هـ مع مقامات الحنفى[٢٠] ، وفى هذه المطبوعة تظهر المقامة الثانية إثر المقدمة ، وتنتهى المقامات بالتاسعة على حين تختفى المقامة السابعة ، ومعنى هذا أن المطبوع قد أدى إلينا سبع مقامات[٢١] ، وقد ألحق الدكتور محمد رشدى حسن برسالته مقامته الأولى وهى تدور حول أكل العنب[٢٢] ، ولكن الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى يرى أن للرجل أكبر من عشر مقامات ، وقد عبر عن ذلك بقوله :[٢٣]

« وعندى أن للرجل أكثر من عشر مقامات ، لأن السواقط من المطبوع هن الأولى والثالثة والسابعة والعاشرة ، فالرابعة التى فى المخطوط هى الثالثة فى المطبوع ، والثامنة فى هذا هى السابعة فى ذاك ، فعليه لايكون ترتيب المطبوع وعدده صحيحين قياسا على المخطوط ، ولكن بروكلمان لايذكر للرجل أكثر من تسع مقامات ، و يشير المستشرق الفرنسى هيوار إلى مقامة عاشرة لم يقف عليها . »

و يقدم ابن ناقيا لمقاماته بقوله :[٢٤]

« هذه حكايات أحسنا العبارة فيها ، وهذبنا ألفاظها ومعانيها ، وحلوناها فى حلى البلاغة على سامعها وراويها ، وقد سلك بعض المتقدمين هذا المذهب فى مثلها — رياضة للخاطر وتحديا للقريحة ، غير نائل جفيرها للمرمى ، ولا رايدا لسوامها عند أحد مرعى ، وإنما وسمتها باسم مستعار على عادة الشعراء فى تشبيب القاصد ، والحكماء فى وضع الحكمة على ألسنة البهائم ، وليس ذلك بمحظور ، وإنما هو تصرف فى العبارة وراحة من تعب الجدّ إلى ملح البلاغة » .

وهنا لانجد وجها لاعتراض الدكتور يوسف نور عوض على ابن ناقيا فى مقدمته هذه حين يرميه بالسطحية فى فهم القصص الحيوانى[٢٥] ، إذلم يكن القص على لسان الحيوان من هموم الرجل هاهنا ، تشهد بذلك مقاماته التى اختفى منها

(٢٠) مقامات الحنفى وابن ناقيا : ١٤٣ — ٣ﻫ ،

(٢١) توهم محققا النشرة الكويتية من الجمان أنها ثمانى مقامات ، راجع المقدمة : ص(ك)

(٢٢) تطور فن المقامة : ٩٥ نقلا عن المستعرب الفرنسى Hmart فى
Les Séances D'Ibn- Naqiya.. P. 16- 17

(٢٣) الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا بتحقيق وتقديم الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى ، المقدمة : ص٢٧ (الإسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٧٨م)

(٢٤) مقامات الحنفى وابن ناقيا : ١٢٣

(٢٥) فن المقامات بين الشرق والغرب : ١٤٨

العنصر الحيوانى ودارت جميعا على شخوص بشر ية ، وكل مانفهم من هذه المقدمة أن الرجل أراد أن يؤكد لنا ولنفسه ــ كما فعل الحر يرى وابن الجوزى فيما بعد(٢٦) ــ أن التشخيص فى هذه المقامات ليس محظورا وليس من مناهى الشرع ، وأن بعض المتقدمين قد سبقه إلى هذا الميدان وجوز لنفسه وضع مقامات مماثلة ، كما صنع الحكماء حين أنطقوا الحيوان . وكما يصنع الشعراء حين يشببون فى مطالع قصائدهم فيذكرون أسماء لاشخوص لها ويجسمون حبائب لا وجود لهن ، ويخترعون مواقف غرامية لم تكن . وهذا يتضح بجلاء فى القسم الأخير من المقدمة حيث يقول :

« وكان ابن عباس رحمه الله إذا أكثر من الجد قال احمضوا ، بر يد الأخذ فى طرف الأحاديث ، كما تتمرأ الإبل بالحمض إذا بشمت الكلأ . وقد ورد من أمثال العرب مايستحيل فى الحقيقة على ما استعمل له ولا يسمى ذلك كذبا وقالوا على لسان ولد الضب يخاطب أباه :

قد هدموا بيتك لا أبا لكا   وزعموا أنك لا أخا لكا
وأنا أمشى الدأ لا حوالكا

أنشد ذلك محمد بن يز يد فى كتاب الكامل ، وهو من نفيس الكتب ، يرو يه أصحاب الحديث ، ونحن فلم نبلغ فيما أوردناه فى هذه المقامات إلى هذا الحد وان كنا قد مزجنا فيها اللعب بالجد ، ونعوذ بالله مما أسخطه من خطل القول ، ونرغب إليه فى تغمدنا بالتجاوز والعفو ، إنه ولى الرغبة إليه إن شاء الله »

والذى نفهمه حقا من هذه المقدمة بعد ذلك أن الرجل أراد أن يطلعنا على مقصده الفنى الخالص فى هذه المقامات التى لم ينشئها قصدا للهجاء ، أو ابتغاء للنوال كما أكد لنا أن شخوصها غير حقيقية ، وأن حوادثها مخترعة لم تقع ، ولكن

(٢٦) راجع قول الحر يرى فى مقدمته : « على أنى وإن أغمض لى الفطن المتغابى ، ونضح عنى المحب المحابى ، لا أكاد أخلص من غمر جاهل ، أو ذى غمر متجاهل ، يضع منى لهذا الوضع ، و يندد بأنه من مناهى الشرع ، ومن نقد الأشياء بعين المعقول ، وأنعم النظر فى مبانى الأصول ، نظم هذه المقامات فى سلك الإفادات ، وسلكها مسلك الموضوعات ، عن العجماوات والجمادات ، ولم يسمع بمن نبا سمعه عن تلك الحكايات ، أو أثم رواتها فى وقت من الأوقات ...... »

الدكتور يوسف نور عوض توقف عند جانب من العبارة شغله عن سياق الحديث فاتهم الرجل بما ليس فيه من السطحية والجهل ، فلم يكن منصفا فى الحكم على هذه المقدمة ، ومن ثم لم ينصف الرجل فى سائر أحكامه على هذه المقامات .

وأول مايلحظ على ابن ناقيا أنه أدار مقاماته على بطل واحد هو اليشكرى ، واليشكرى عنده فضولى واغل وارش سارق ، ولكنه لم يجعل له راو ية واحدا كما هى الحال عند البديع ، بل إن راو يته دائما نكرة لاتعرف ، فهو يبدأ مقاماته بمثل قوله : « حدثنى بعض الفتاك » ، أو بعض الشامين ، أو بعض الأصدقاء ، أو بعض أهل الأدب ... إلى آخر ذلك ، وكان تعدد الرواة سببا إلى خفوت شخصية الراو ية التى تبدو غالبا شخصية غائمة ، فالراو ية عنده لا يكاد يقوم إلا بدور القاص ، وليس له فيا عدا ذلك دور يؤديه فى المقامة .

ومن الواضح أن ابن ناقيا جعل مقاماته مواقف منفصلة إلاّ من جهة البطل الذى يظهر بدوره فى ثوب جديد فى كل مقامة ، وربما لم يبد ابن ناقيا تعاطفا مع بطله أو لم يحسن لنا حيله وألاعيبه ، بل كان على حد تعبير الدكتور يوسف نور عوض يقسو عليه قسوة كبيرة (٢٧) ، ولكن هذا فى الحقيقة لايحسب على الرجل بقدر مايحسب له فإنه لم يهدف إلى إعلاء شأن البطل أو تصو ير جوانب مشرقة فيه تخفف من إحساسنا بتجريمه ولو انه عمد إلى ذلك ثم أخفق لكان مقصرا ، ولكنه أراد أن يعرض لنا فى كل مقامة صورة من صور الامراض الاجتماعية التى تفشت فى عصره ، مجسدة فى بطله ، وكان أقرب إلى روح الفنان حين لم يعلق عليها بصوت الخطيب أو الواعظ بل ترك لنا حر ية الحكم عليها .

ولنا بعد هذا أن نرفض قول الدكتور محمد رشدى حسن (٢٨) :

« ... وحتى المعنى الساقط الذى يعبر عنه يأتى به ، و يقف سلبيا إزاءه لايحاول على الإطلاق ، أن يبين سقوطه وانحلاله ، وكان الهمذانى من قبله مع واقعيته لايسكت على عبث ولا يرضى أن يدافع عن خطيئة ، بل هو يتلاءم مع الذوق الإنسانى الدينى والذوق الأدبى معا » .

---

(٢٧) فن المقامات : ١٥٢

(٢٨) تطور فن المقامة : ٩٨ وانظر ص ٩٧ ، ٩٩

فهذا الكلام لا يعبر عن فهم صحيح لروح العمل الفنى فى مقامات البديع وابن ناقيا على السواء .

ولعل ابن ناقيا فى ذلك كله حاول التحرر من أسر البديع فى رسم شخصيتى البطل والراوية ، كما حاول التجديد فى موضوعات مقاماته بالبعد عن موضوعات الكدية الصريحة ، وان وقع قريبا منها .

ونتوقف قليلا عند مقامته الثانية لنراه يرويها عن بعض الفتاك ، يصوره لنا وقد خرج ليله فى سلاحه يعترض أبناء الطريق فوقع نظره على شخص لم ينتظم مثله سلك النظر ، حتى وقع فى خاطره أنه من غير البشر ، فتتبعه خلسة « وإذا به قد اقتحم منازل أهل البلى وسكان الثرى ، لا يرقب فيهم ذمة ، ولا يرحم لهم زمّة ، فجعل يطأ الأجداث ويخترقها و يستافها ، و ينتشقها ، حتى وقع على ضالته ، وأدرك دفين ليلته ، فرأيت منه العجب العجاب ، فى سفى تلك الاحجار والتراب ، حتى وصل إلى البائس فى ذلك القصر الدامس ، فجبذه من ضريحه ، ونبذه على صفيحه فسلب أكفانه ، وحطم إرانه ...... »

ولكن حركة العسس والطواف أزعجته فعدل بسلبه إلى مئذنة فاعتلاها ووقف فى الناس خطيبا فذكر وخوّف ، ووعظ واستعطف ، حتى تعالى بكاء القوم ، فدهش الراوية من فعله وتبعه فى الطريق إلى أن سأله عما بين فعله وأدبه فبدهه بقوله : « لم يخف علىّ فضولك منذ الليلة فما عليك من ذى العيلة » ، ثم احتج عليه بقول النبى (اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض) ، فلما صاح فيه الراوية « ويحك يعنى فى استخراج النبات ، لا فى نبش الأموات » ، استطال عليه إذ لم يكن أولى منه بالتأويل ومضى عنه وهو ينشد معرضا به :

أنا ابن عم الليل وابن خاله إذا دجا دخلت فى سرباله
ماذا يرينى الليل من أهواله لست كمن يجزع من خياله

وهكذا نجد عنده طرافة الموضوع ، فبطله نباش قبور وهو فى ذلك وإن كان يدخل فى الإطار العام للكدية بمعناها الواسع إلا أنه اختار جانبا جديدا ربما لم يسبق إليه ، وقد أجاد فى حبك الحكاية ، فهذا الفاتك الذى خرج مدججا بالسلاح ليعترض السابلة أزعجته هيئة البطل فتتبعه وقد نجح ابن ناقيا فى تشويقنا إلى سبر غور هذا المخلوق والاطلاع على حقيقة امره .

ثم أجاد ابن ناقيا فى تصوير هجمة البطل على القبور واستطاع ان يثير الاشمئزاز من سوء فعله بفريسته وقد عبر عن ذلك بألفاظ سهلة تشيع فيها سجعة مقبولة ، ثم اختلق عقدة معقولة قطعت على بطله طريقه ، ولكنه يخرج من هذا المأزق بسعة حيلته يعدل إلى المسجد فيقف بالناس خطيبا يرغب و يرهب إلى أن أبكى الناس وكان يمكن أن تنتهى المقامة عند هذا الحد ، ولكن ابن ناقيا شاء أن يلقى مزيدا من الضوء على هذه الشخصية الغريبة الأطوار فيما جرى بين البطل والراوية من حوار يطلعنا فيه على جانب من فقهه الغريب الذى يبرر به سوء فعله .

وأظننا لانفهم بعد ذلك أن ابن ناقيا قد وضع هذه المقامة عن المفسرين أهل التأويل فى سبيل الهدف الدنيوى ، لايهتمون بالوسيلة وإن كان لهم المظهر الخداع بالدين (٢٩) ، كما يرى الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى ، فاليشكرى فى هذه المقامة لم يكن مفسرا وإنما كان نباش قبور ، أما قوله « لست بالتأويل أولى منى » ففيه إشارة إلى دهائه وتعريضه بمحدثه الذى كان هو الآخر فاتكا قاطع طريق .

ومن المقامات التى برع ابن ناقيا فيها مقامته السادسة التى يظهر الراوية فيها واحدا من المتكلمين ، على حين ألبس اليشكرى ثياب الدهرية ، وقد علل لالتقاء بطليه على اختلاف مشاربهما بأن الراوية دخل إلى بستان فى يوم قائظ ليستظل فإذا بالبطل وقد أخذ به السكر كل مأخذ ومازال يعاقر الخمر ، و يترنم بأنواع من الشعر ، ولم يكن للراوية — المتكلم — بد من احتمال أضغاثه فرارا من الحر ، فلما أنس إليه البطل قدم إليه كأسا فامتنع لأنه من أصحاب الكلام وممن لهم نظر فى الدين ، وهنا انبرى البطل — الدهرى — إلى جداله فقال :

« ماتقول فى هذه الكأس ؟ — وأجال الماء والخمر فيها — أثابتان معا أم بطل أحدهما أم دخل فى الآخر فلا يجوز أن يبطل أحدهما لأن هاهنا خمرا وماء ؟ ولايدخل كل واحد منهما فى صاحبه فيصير داخلا فى نفسه وإنما هما ثابتان وبالاختلاط وقع التغيير والاستحالة ، ولاكون ولافساد إلا باستحالة ، والطبيعة اثنتان إحداهما مستعلية على الكون والفساد والأخرى معرّضة الأجزاء لذلك ، والإنسان مركّب منهما وهو يحيى بالنفس النامية و ينتقل بالنفس المتحركة ،

---

(٢٩) مقدمة الجمان : ٢٨

و يعدم الأشياء بالنفس المميزة . والنفس فى الأجساد بمنزلة الصورة فى الهيولى . وهى المحركة للاجساد . وهذه الخمرة محركة للنفس وهى نفس لكل نفس » .

وكأن ابن ناقيا قد فطن إلى استطالة هذا الحوار من جانب واحد ، فصور لنا صاحبه وهو ينصرف الى عب خمره ثم يعاوده وسواسه ليقول : « والحركة أو كرن طبيعى ولها معنيان الشوق والفعل » ، وشرح ذلك ، ثم أخذ يزين قول أرسطوطاليس : « إنه لما لم يكن للانسان أن يبقى بشخصه اشتاق إلى أن يبقى بصورته » ، وانتهى فى هذيانه الى التصريح بجوهر عقيدته فأنشد بيتى أبى نواس :

باح لساني بمضمر السر وذاك أني أقول بالدهر
وليس بعد الممات منبعث وإنما الموت بيضة العقر

وهنا يتيح ابن ناقيا لراويته دورا أكبر فى هذه المقامة حين ينكر على صاحبه ما انتهى إليه من ضلال من إنكار للبعث والحساب ، و بين له أن قدرة الخالق على بعث الخلق بعد فساد أجزائهم وتفرقها فى الثرى بينة كما أن الحب لا ينبت إلا بعد العفن والاضمحلال والبيضة لا تفرخ الا بعد الفساد والانفعال ، ثم كان أن تلا شيئا من القرآن فى هذه المعانى ، وهنا يسرع الدهرى إلى الاعتراض ، فاعترض على قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) ، بقوله « وفى أوان كل محاق يقع الإدراك واللحاق ، ثم فى كسوف الشمس ، يكون الإدراك الحقيقى » ، و ينبرى المتكلم لتفسير الآى الكريمة وإبراز معانيها ، والدهرى يجدد إنكاره واعتراضه .

و ينهى ابن ناقيا مقامته نهاية موفقة حين يقول على لسان الرواية :

« فقال : دعنى من خرافات المتكلمين وأقاويل المشرعين ، ولم يزل يعنينى كفره ، حتى مال به سكره ، فتوسد جانبه الوحشى ، إلى العشى ، وجعل يفيخ ، ولا يريخ ، و يرسلهن كسهام الحنايا إلى الرمايا ، وأقبل الناطور فقال : ما فعل اليشكرى ؟ فقلت : بل ماأظن التيس ، إلا من عبد القيس » .

بهذه الصورة الهازلة ينهى ابن ناقيا مقامته ليخفف شيئا من وطأة الجدال العقلى الذى دار فيها ، و يومىء فى الوقت ذاته إلى انصراف هذا الدهرى عن

سماع صاحبه ، وإصراره على ما يعتقد من إنكار للبعث واعتراض على آيات الكتاب العزيز ، ولهذا عدّ ما قال صاحبه ضربا من الخرافات ، ونام عن سماع كلامه . وكأن ابن ناقيا بهذا يشير إلى تجاور الأضداد فى مجتمعه وتباين أصحاب الآراء والأفكار والمذاهب .

أما قول الدكتور يوسف نور عوض (٣٠) :

« والمقامة الوحيدة التى حاول أن ينطق فيها اليشكرى بمدلولات فكرية كان البطل فيها سكران مما لا يجوز أخذ كلامه مأخذ الجد » .

فمردود لبعده عن الفهم الصحيح لطبيعة العمل الأدبى والفنى ، ألم يكن سكر الدهرى داعية إلى انطلاق لسانه بما قد يتحرز من قوله حال صحوه ؟ ألم تكن فيه ترجمة عملية لمروقه عن الدين ؟ وكان توطئة هيأت للكاتب/سوق حديثه عن الخمر والنفس ؟ وكان فى هذا ما فيه من إبراز المفارقة فى تناول هذا السكران لآى القرآن بالاعتراض ، وفى محاولة المتكلم غير المجدية لرده عن ضلاله .

ولا أريد أن أقول إن الاعتراض على آى القرآن على لسان سكير أخف وطأة على نفس المتلقى ، فقد كان ابن ناقيا نفسه متهما فى دينه ينسب إلى التعطيل ومذهب الأوائل (٣١) ، وربما كان متلبسا ببطله فى هذه المقامة .

ومهما يكن من أمر فإن ابن ناقيا بسوقه هذا الحجاج على لسان السكير الدهرى فى جداله المتكلم ، لم يقع بعيدا عما فعل البديع حين ساق نقده المتكلمين على لسان المجنون ــ بطله ــ فى المقامة المارستانية ، فكان نقده لهم على لسان مجنون أشدّ وأنكى .

لقد كان الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى أشد إنصافا للرجل حين قال (٣٢) :

---

(٣٠) فن المقامات : ١٥٢

(٣١) راجع مواضع ترجمته

(٣٢) وانظر أيضا قول محققى نشرة الجمان الكويتية : ص (ك) « وهدفه من هذه المقامات كما أوضحه فى مقدمتها ــ هو شحذ القريحة ورياضة الفكر والملح والإحماض » ، ولكننا نستطيع أن نتبين لها أهدافا أخرى تتجاوز ذلك ، بل تتجاوز اللغة والأدب والغريب إلى عرض كثير =

« والمقامة السادسة عن الدهريين من أخطر المقامات ، فيها نقاش مع الدهرية حول نظريتهم في الكون والفساد ، وإنكارهم البعث ، وهي الإشارة الواضحة لابن ناقيا في مهاجمة الدهريين القرآن من جهة المعنى والأسلوب »

على أني لا أوافق الدكتور الجويني على أكثر ماذهب إليه في تعليقاته القصيرة على مقامات ابن ناقيا ، فلا أوافقه على أن المقامة الرابعة « عن اللغويين يعرض فيها ابن ناقيا لطالبي النوال ولديهم ثروة اللغة و يصورهم كثيري الإلحاح والاحتيال فهم يتعامون أو يتجوعون (؟) طلبا للرفد بثقافتهم اللغوية » ، ولكن الذى أفهمه أن اليشكرى وقف بالباب سائلا فاصطنع لسان الأعراب كما تظاهر بالعمى وادعى أنه مبتلى زمن .

و يقول الدكتور الجويني (٣٣) :

« المقامة التاسعة : (عن الكتاب والمغنيات) يصور فيها ابن ناقيا مجالس الكتاب التى تحفل بغناء القيان ، ولهن على الشعراء فضلان ، فضل الالهام الشعرى لجماهين ، وفضل التجسيم الجمالي لأشعارهم بحسن الأداء ومع ذلك فحظهن من الجائزة عاثر لبخل ذوى الأمر »

ومن أسف أننى لا اتفق مع الدكتور مصطفى الصاوى الجويني في ذلك كله ، ولا استطيع أن أربط بينه و بين هذه المقامة التى أراها أجمل مقامات ابن ناقيا ، وهى صورة أخرى جديدة و بديعة من المقامة المضيرية للبديع ، أراد ابن ناقيا أن يصور فيها مبلغ شح اليشكرى ولؤم نفسه .

وكيف والمجلس مجلس شراب لامجلس كتاب ، وأصحابه إنما هم جماعة من الرؤساء وليس فيه من الكتاب إلا الراوية الذى أجرى ابن ناقيا مقامته على لسانه ، ولا أحسب ابن ناقيا قد اختاره كاتبا تحقيقا للسجعة فحسب ، وإنما ليسوق على لسانه ماشاء من أوصاف هذا المجلس الذى :

= من الآراء الكلامية والفلسفية والمنطقية نتبين ذلك من (بطل) مقاماته الرئيسى الذى نحله اسم « اليشكرى » وأعطاه دور أحد الفلاسفة الدهريين — في إحدى هذه المقامات — وقدم على لسانه أنماطا من الشكوك واقوالا مما يتذرع به الملاحدة ، وكان دور المتكلم فيها إجابته بالحجة والروية ، وتسفيه تلك الاراء الفلسفية في المعاد والخلق والكون .

(٣٣) مقدمة الجمان : ٢٩

« مثلت به قَينة كأنها دُمية المحراب ، مغموسة فى ماء الشباب ، مليحة التصرّف والافتنان ، موسومة بالحُسن والإحسان ، كأنما طر بت الشمس على غنائها ، فخلعت عليها حلة بهائها ، أو بكى لديها عاشقها ، فحكى رقةَ دموعه منطقُها ، تستنزل العصم بملحها وخدعها ، وتسحر العقول بمجونها و ولعها » (٣٤)

لقد هجم اليشكرى على هذا المجلس متوسلا بقول العباس بن الأحنف :

أتأذنون لصبٍّ فى ز يارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

وسرعان ما انبسط اليشكرى فعب من الخمر إلى السّحر ، واظهر الكلف بالقينة ، والإعجاب بحسن غنائها ، فواصل الاقتراح عليها حتى ملك على القوم مجلسهم ، وساور كرى النوم بعضهم ، وأراد فتى منهم أن يبعث النشاط فى المجلس ، فهمس للجار ية أن تعبث باليشكرى ، « وكان فى يده خاتم كالقلامة ، بفصّ كالبرامة » فبعثها على أن نراوده عنه ، فتفرغت القينة اليشكرى ، وتوجهت إليه بكليتها ، فجعل يغازلها وتغازله ويمازحها وتمازحه ، و يقترح عليها ما يشاء من الأصوات ، فتأتى بما يسحر ألالباب ، وهى فى أثناء ذلك تغرقه فى بحر من الخمر ، فلما تمكن منه الطرب ، وأعلن أنه لو أسعفته الحال لسعى فى رضاها ، فإنها عنده أحق بخراج العراق ومنبر الملك ، تصورت أنها تمكنت منه ، فطلبت إليه أن يهبها خاتمه لتتذكره به ، فتغيرت حاله ، وجعل يغالطها عن ذكر الخاتم ، وهى تعاوده وتلح فى الطلب الى أن هوت بيدها الى يده لتنزعه ، فخّر مغشيا عليه ، فارتاعت وقد ظنت أن نفسه قد فاضت « فبعد لأى ما أفاق ، وهى متعرضة له ، فقال لها : إليك عنى ، لستُ من دَدٍ ولا دَدٌ منى ، ونهض فخرج ، والصباح قد بلج ، وقد غلب لؤمه وفلج »

هذا هو مضمون المقامة التاسعة مع الاختصار المخل ، نرى منه كيف برع ابن ناقيا فى تصو ير هذه الشخصية العجيبة التى تر يد من الدنيا كل شىء ، ولا تسمح نفسها ببذل شىء ، ولقد أجاد حين حشد لليشكرى كل ما يمكن أن يدفعه إلى السماح بخاتمه الضئيل ، ولكن هيهات .

---

(٣٤) مقامات الحنفى وابن ناقيا : ١٤٨

وحسب [illegible]
مصطفى الجويني على هذه المقامة . وإن كان تعليقه على مقامة أخرى أشد غموضا ([٣٥]) :

« المقامة الخامسة : تعرض لما نشأ في مجتمع العصر من شذوذ الجنس ، وأنه مرقاة إلى المال أو المنصب خاصة واللقاء في قصر ابن الوليد تم انتهى في إحدى (كذا) الغيطان . لعل هذه المقامة تشير إلى ما كان بين المتنبي وكافور الاخشيدي في مصر ، فيصور موقف الذل الذي وقفه المتنبي بموقف الخزي الذي يتعرض له مرتكب الشذوذ الجنسي » .

ويبدو أن الذي دعا الدكتور الجويني إلى هذا التأويل البعيد أن ابن ناقيا جعل أحد الشخصين عبدا أسود ، وأن الآخر — وهو اليشكري — دعاه : أبا المسك .

ومهما يكن من أمر فلا شك أن ابن ناقيا سعيد بهذا الاختلاف الشاسع حول مقاماته ، فعلى حين يرى الدكتور محمد رشدي حسن كاتبها كاتبا شيطانيا لا يراعي الذوق الإنساني والآدمي ([٣٦]) ، ويكاد الدكتور يوسف نور عوض يعريها من كل مغزى ، يرى لها الدكتور مصطفى الصاوي الجويني رموزا بعيدة قد لاتتسع لها .

ويبدو أن مقامات مشرقية أخرى قد وضعت في ذلك العهد ، ولكنها ضاعت أو لم تحظ بحظ من الشهرة والذيوع ، وخير مثال على ذلك « شَهْفيروز ([٣٧]) بن شعيب ([٣٨]) ابن عبد السّيد ، وهو شاعر كاتب مغمور من أهل بغداد لانكاد نقف على اسمه في مصادر أدبنا العربي ، بالرغم من أنه كان فيما يبدو أديبا مجيدا

---

(٣٥) مقدمة الجمان : ٢٨

(٣٦) تطور فن المقامة : ٩٨

(٣٧) اختلف في اسمه وقد أثبتناه من الخريدة/العراق : ٣/٢/٢٩٦ (بتحقيق محمد بهجة الأثري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٧٥ — ١٣٨٤ هـ) وهو فارسي معناه الملك المنصور ، وفي معجم الأدباء : ١١/٢٧٢ ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي : ١/٣٨٦ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٥١ م ، أنه « شَفْهَفيرُوز » .

(٣٨) في الخريدة : سعد ، والمثبت من معجم الأدباء ، وفوات الوفيات .

وشاعرا مفلقا ، لقد وضع « شهفيروز » مقاماته الأدبية التى ضاعت كما ضاع ذكره فى الحلقة الأخيرة من القرن الخامس ، نطالع ذلك فى قول ياقوت الذى ربما لم يلتفت إليه أحد من قبل (٣٩) :

« أبو الهيجاء الأصبهانى ، كان أديبا فاضلا شاعرا مجيدا فى النظم والنثر له مقامات أنشأها سنة تسعين وأربعمائة (٤٠) ، وأخذ عن ابى جعفر محمد بن سلمة وغيره ، مات سنة ثلاثين وخمسمائة » .

---

(٣٩) معجم الأدباء : ١١/٢٧٢ ، ومثله فى فوات الوفيات : ١/٣٨٧ ، ولم يذكره بلاشير أو غيره فى أصحاب المقامات ، ولم يذكر العماد فى الخريدة شيئا عن مقاماته ، فى ترجمته التى تبدو مبتورة ناقصة .

(٤٠) عده الدلجى فيمن عملوا المقامات بعد الحريرى ، واسمه عنده أبو الهيجاء شهنيروز ، راجع الفلاكة والمفلوكون : ١٥٣

ب ـ فى المغرب والأندلس :

فإذا انتقلنا إلى المغرب العربى وجدنا أهل الأندلس على عهدهم من الاحتفاء بالآثار المشرقية ، وقد رأينا من قبل قدر إعجاب الحصرى بمقامات البديع ، وقد تلاه فى ذلك الكلاعى الذى ختم كلامه عن البديع ومقاماته بقوله(٤١) :

« ومحاسن أبى الفضل لاتنتهى أوينتهى عنها و وقد عارضه فى هذه المقامات جماعة من الكتاب ، بما نزهت عن ذكره هذا الكتاب »

بل لقد وجدت رسائل البديع طريقها إلى الأندلس ، و يسوق لنا صاحب الذخيرة رقعة من إنشاء أبى المغيرة عبدالوهاب بن حزم يعارض بها رسالة بديع الزمان فى الغلام الذى خطب إليه وده بعد أن عذّر ، و بقل وجهه وأزهر ، حين عرضت عليه(٤٢) .

ولعل أول من تأثر بمقامات البديع من أهل الأندلس ابن شهيد(٤٣) فى رسالته التوابع والزوابع ، فقد نقلنا إلى أودية الجن ، يلقى فيها توابع الشعراء والكتاب من أهل عصره وسابقيه حيث تدور بينه و بينهم محاورات ومساجلات استطاع من خلالها أن يبرز كثيرا من آرائه الأدبية وأن يسخر من أدباء عصره سخرية لاذعة .

---

(٤١) إحكام صنعة الكلام : ٢٠٨

(٤٢) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام : ١/ ١٤٠ (بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م) ، وهو عبد الوهاب ابن عم ابن حزم صاحب طوق الحمامة ، توفى سنة ٤٥٦ هـ

(٤٣) أبو عامر أحمد بن أبى مروان ، توفى سنة ٤٢٦ هـ ، راجع : الذخيرة : ١/ ١٩١ ، والمغرب فى حلى المغرب : لابن سعيد : ١/ ٧٩ (بتحقيق الدكتور شوقى ضيف القاهرة ، دار المعارف ، طبعة ثانية منقحة ١٩٦٤ م) .

ولقد سقنا من قبل رأى شوقى ضيف(٤٤) فى أن التشابه الكبير بين هذه الرسالة ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، قد لا يعود إلى تأثر إحداهما بالأخرى ــ وهذا ما اختلف بشأنه الباحثون ــ وإنما يعود إلى أثر آخر استمدا منه جميعا هو المقامات البديعية و بوجه خاص المقامة الإبليسية التى استغل فيها البديع الفكرة العربية القديمه عن شياطين الشعراء فعقد لقاء خياليا بين عيسى بن هشام وشيطان جرير ، أقام عليه مقامته .

ومع تأثر ابن شهيد بالمقامة الابليسية فى اقامة الاطار العام لرسالته فإنه تأثر بغيرها من مقامات البديع ، فى صنع مادة رسالته ، فقد انى زبدة الحقب تابعة بديع الزمان ، وعارضه فيما أملاه على لسان البديع فى المقامة المضيرية بقطعة بليغة فى صفة الماء(٤٥) ، ما إن سمعها زبدة الحقب حتى استشاط غضبا ، فضرب الأرض بقدمه حتى غار فيها .

و يرى مصطفى الشكعة أن ابن شهيد فى هذا قد أجحف عن عمد بأستاذه البديع لذا يعد عليه مواطن تأثره به فيقول(٤٦) :

« وهكذا يتبين لنا أن ابن شهيد أخذ المقامة الإبليسية لبديع الزمان ونماها وتوسع فى خيالاتها وأضاف إليها ما جعلها تخدم غرضه الخاص فى كتابة قصته الطويلة .

وابن شهيد متأثر بعد ذلك بعدد آخر من مقامات بديع الزمان مثل المقامة البشرية ، والمقامة الحمدانية وفيها وصف جميل للفرس ، يقابله وصف الأوزة ، فى التوابع والزوابع ، والمقامة الجاحظية وفيها وصف لبلاغة الجاحظ وابن المقفع يقابله وصف لبلاغة الجاحظ وعبدالحميد عند ابن شهيد ، و يظهر تأثر ابن شهيد ببديع الزمان فى الموضوع والأسلوب والفكرة فى وصفه الحلوى . »

---

(٤٤) المقامة : ٣١ ، وعصر الدول والإمارات : ٦٧٣

(٤٥) التوابع والزوابع : ١٢٨ بتصحيح بطرس البستانى ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧م .

(٤٦) الأدب الأندلسى ، موضوعاته وفنونه : ٦٨٠ ، (بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ١٩٧٥ م) والأدب فى موكب الحضارة الإسلامية (كتاب النثر) ٦٤٩ (بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ م) .

ومن أسف أن هذه الرسالة الممتعة قد ضاعت فلم يبق منها إلا ما احتفظ لنا به ابن بسام في ذخيرته [٤٧]. ولكنها على كل حال كانت أحسن حظا من رسائل أخرى كثيرة ألفها ابن شهيد على هذا النحو الذي أدمنه فضاعت بالرغم من أنها كانت مشهورة محتفى بها في حياته و بعد موته كما نفهم من قول ابن حيان [٤٨].

« وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال . قصار وطوال برز فيها شأوه ، و بقاها في الناس خالدة بعده »

* *

و يسوق ابن بسّام في ذخيرته نصا قصيرا في أخبار الأديب عبدالرحمن بن فتوح يتخذ الشكل المقامي [٤٩] ، وتدور أحداث هذه المقامة في رمضان سنة أربعمائة وثلاثين وكان ابن فتوح يطوف بالمسجد الجامع بالمرية يردد بيتا من الشعر متأثرا لفراق حبيب حيث يلتقي بفتى من شداة الأدب ، ويخبره الفتى أنه أخذ بيته من العباس بن الأحنف ويمضي الفتى عنه وقد تعلق به ابن فتوح ، ولكنه يعاوده عند الفجر ، ولما لم يجد ابن فتوح في بيته خمرا يتنادمان عليها ، أمضيا وقتها في مدارسة أحوال الأدب والأدباء و يتخذ ابن فتوح من هذا الإطار منطلقا لنقد بعض أدباء مصره وعصره [٥٠] :

« فقال لي كيف ذكرك لرجال مصرك ؟ ووقوفك على شعراء عصرك ؟ قلت : خير ذكر ، فقال : من أعذبهم لفظا وأرجحهم وزنا ؟ قلت : الرقيق حاشية الظرف ، الأنيق ديباجة اللطف ، أبوحفص بن برد . قال : فمن أقواهم استعارات وأصحهم تشبيهات ؟ قلت : البحر العجّاج والسراج الوهّاج أبوعامر بن شهيد . قال : من أذكرهم للأشعار ، وأنظمهم للأخبار ؟ قلت : الحلو الظريف البارع اللطيف أبوالوليد بن زيدون ، قال : فمن أكلفهم بالبديع وأشغفهم بالتقسيم والتتبيع ؟ قلت : الراتع في روضة الحسب ، المستطيل بمرجة الأدب ، أبوبكر يحيى ابن إبراهيم القبّني ... »

---

(٤٧) الذخيرة : ١/٢٤٥ — ٣٠١

(٤٨) الذخيرة : ١/١٩٢ وانظر رسالة له تقترب من روح المقامة : الذخيرة ١/٢١٣ — ٢٢٥ .

(٤٩) الذخيرة : ١/٧٨٦

(٥٠) الذخيرة : ١/٧٨٧

وإن كان ابن فتوح قد حدد مكان وزمان هذا المجلس ولم يتخذ لحديثه هذا راو ية ، ولم يستتر هو وراء شخصية وهمية بل نصب نفسه بطلا للمقامة ممايقترب بها كثيرا من الواقع (٥١) ، فإن حديثه هذا قد اتخذ شكل مقامة نقدية يلقى فيها ابن فتوح أحكاما عامة على أدباء عصره ، كما رأينا .

ولابن فتوح بعد ذلك قطعة أخرى أوردها ابن بسام فى الذخيرة وقدّم لها كسابقتها بقوله (٥٢) : « وحدث ابن فتوح هذا عن نفسه قال » ، وتدور كسابقتها فى المسجد حيث كان ابن فتوح بصحبة غلام معذّر كان قديم الامتزاج به ، فلقيه بعض إخوانه وعاتبه على المضىّ فى حبه ، فما كان منه إلا أن دافع عن موقفه بقطعة بليغة من النثر وأبيات من الشعر ، و يبدو الطابع المقامى فى هذه القطعة القصيرة التى أطلعنا عليها ابن بسام فى ظهور الشخصيات ، و وجود الحوار ، والمراوحة بين الشعر والنثر .

* *

فإذا تقدمنا قليلا فى القرن الخامس صادفنا ابن شرف القيروانى (٥٣) معاصر ابن رشيق القيروانى ، صاحب العمدة وخصمه الكبير .

ومن أشهر اعمال ابن شرف مقامة نقدية طو يلة احتفظ ابن بسام بنصها (٥٤) ، وطبعت مرارا (٥٥) .

---

(٥١) راجع تار يخ النقد الأدبى فى الأندلس : ٣٦١ ، والدكتور إحسان عباس فى تار يخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) ٣١٢ــ ٣١٣ (بيروت دار الثقافة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٤ م) .

(٥٢) الذخيرة : ١/ ٧٧٨

(٥٣) هو أبو عبد الله محمد بن أبى سعيد بن أحمد بن شرف الجذامى القيروانى وقيل ابن شرف اسم أم أحمد جد ابن شرف ، وقيل اسم ابيه فيجوز صرفه ومنعه ، نشأ ابن شرف فى القيروان ثم رحل إلى صقلية ومنها إلى الأندلس حيث أقام فى كنف بنى عباد فى أشبيلية ، وتوفى سنة ٤٦٠ هـ .

(٥٤) الذخيرة : ٤/ ١٩٦ــ ٢١١ و يلاحظ الدكتور إحسان عباس أن ابن بسام يوجز فى النقل ، راجع ص ١٩٧ ح (١) .

(٥٥) نشرت بعنوان أعلام الكلام عن نسخة أحمد طلعت بتصحيح عبد العزيز أمين الخانجى (القاهرة ، مكتبة الخانجى ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٦م) ، ونشرها محمد كرد على بعنوان مسائل الانتقاد فى رسائل البلغاء (القاهرة ، لجنة التأليف الطبعة الثالثة ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٦م) ، ثم نشرها شارل بلا مع ترجمة إلى الفرنسية (الجز ' ١٩٥٣م) .

و يبدا ابن سرف مقامته النقدية بأحكاه عامه على الشعراء مند الجاهلية حتى عصره لا تختلف عن تلك التى رأيناها عند ابن فتوح كثيرا ومع هدا فهى لا تخلو من رؤ ية خاصة لعل أبلغ دليل عليها قوله فى أبى نواس :

« أما أبو نواس ، فأول الناس فى خرم القياس ، وذلك أنه ترك السيرة الأولى فنكّب عن الطريقة المثلى ، وجعل الجدّ هزلا ، والصعب سهلا ، وخالف فتشهر وعرف ، وأغرب فذكر واستطرف ، والعوام تختار هذه الأعلاق ، وأسواقهم أوسع الأسواق ، فشعر أبى نواس نافق عند هذه الأجناس ، كاسد عند أنقد الناس ..... » (٥٦) .

وإذا كنا نراه يتهم أبا نواس باتباع سياسة « خالف تعرف » فلا شك أننا نلمح شيئا من ذلك فى نقده هو لأبى نواس . وإذا تقدمنا فى مقامة ابن شرف وجدناه يولى المعنى اهتماما خاصا :

« إن من الشعر ما يملأ لفظه المسامع و يرد على السامع من قعاقع فلا يرعك شماخة مبناه وانظر إلى ما فى سكناه من معناه ، فإن كان فى البيت ساكن فتلك المحاسن ، وإن كان خاليا فاعدده جسما باليا ، وكذلك إذا سمعت ألفاظا مستعملة ، وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما فى أضعافها » .

وما دامت المعانى هى الأرواح والألفاظ هى الأشباح على حد تعبير ابن شرف فلينطلق من هذا المنطلق لنقد أشعار الشعراء ، وهو هنا لا يحمله إجلال القديم المذكور على العجلة باستحسانه بل يمضى فى نقد امرىء القيس وزهير وسحيم نقدا لاذعا فى أكثر الأحيان ، فمن ذلك عيبه بيت امرىء القيس :

و يوَم دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ   فقالتْ لكَ الوْيلاتُ إنَّكَ مُرْجِلِى

حيث يقول :

« فما كان أغناه عن الإقرار بهذه ، وأشد غفلته عما أدركه من الوصمة به ، وذلك أن فيه أعداد كثيرة النقض والبخس ، منها دخوله متطفلا على من كره دخوله عليه ، ومنها قول عنيزة له « لك الو يلات » وهى قولة لا تقال إلا لخسيس ، ولا يقابل بها رئيس ، فإن احتج محتج بأنها كانت أرأس منه قيل له : لم يكن ذلك ،

---

(٥٦) الذخيرة : ٤ / ٢٠٥ ، ورسائل البلغاء : ٣١٤ ، وأعلام الكلام : ص ٢٢

لأن الرئيسة لاتركب بعيرا يدرج أويموت إذا ازداد عليه ركوب راكب ، بل هو بعير فقير حقير ، فإن احتج بأنه صبر على القول من أجل أنها معشوقة قيل له وكيف يكون عاشقا لها من يقول لها :

فمثلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ وُمرضِعاً فألهيتُها عن ذِى تَمائمَ مُحْوِلِ

وإنما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقته واطراح سواها كالقيسين فى ليلى ولبنى ... ، ثم أهجن هجنة عليه ، وأسخن سخنة لعينيه ، إقراره بإتيان الحبلى والمرضع ، فأما الحبلى فقد جبل الله النفوس على الزهد فى إتيانها .. ولا يميل إلى هذا من له نفس سوقى ، دع نفس ملوكى .... ثم لم يكفه أن يذكر الحبلى حتى افتقر بالمرضع ، وفيها من التلوث بأوضار رضيعها ومن اهتزالها واشتغالها عن إحكام اغتسالها ، وقد أخبر أن ذا التمائم المحول متعلق بها ... وأخبر أنها ظئر ولدها لاظئر له ولا مرضع سواها ، فدل بذلك على أنها حقيرة ، وقيرة ، ومثل هذه لايصبو إليها من له همّة ، وهذه الصفات كلها تستقذرها نفس الصعلوك والمملوك . »

وعلى هذا النحو يمضى ابن شرف فى نقد سحيم عبدبنى الحسحاس فى قوله :

تُوَسِّدُنِى كفًّا وتحنو بمِعصَمٍ عَلَىّ وترمى رِجْلَهَا مِنْ وَرَائِيا

فينكر صدق هذ البيت ، و يستنكر على هذا العبد الأسود أن يكون معشوقا ، على هذا النحو.

ومهما يكن من أمر هذا النقد ، فان ابن شرف حاول فيه أن يربط بين النص وقائله ، وحاول أن يستبطن الدوافع النفسية التى تكمن من ورائه ، وهو يختلف عما ورد عند ابن فتوح وغيره من أصحاب المقامات النقدية ، فى أنه أسبغ ثوب المقامة ليتسع للوقوف عند أبيات بعينها ناقداً ومحللا ومناقشا ، غير مكتف — كما هو معهود فى مثل هذا المقام بالعبارات القصيرة المسجوعة المجنسة التى تلقى أحكاما عامة ، بل نراه فيما مضى يتخفف من قيود السجع ليتيح له ذلك سعة فى القول ، ولا ننكر أيضا ان ابن شرف صدر فى نقده هذا عن ذوق خاص ومنهج متفرد أضفى على نقده عنصر الجدة والصدق .

ولعل المضمون النقدى لهذه المقامة هو الذى ساعد على بقائها لاحتفاء الأدباء والنقاد بما حوته من فوائد تتعلق بشعراء العربية منذ الجاهلية إلى عصر ابن شرف ،

بينما ضاعت أخواتها ، فهو يحدثنا فى مقدمته التى نشرت مع هذه المقامة عن مقامات اخر له ، يبدو أنه لم يسلك فيها هذا المسلك النقدى ، وإنما تعددت مضامينها ومراميها يقول (٥٧) :

« هذه أحاديث صغتها مختلفة الأنواع مؤتلفة فى الأسماع عربيات المواسم غربيات التراجم ، واختلقت فيها أخبارا فصيحات الكلام بديعات النظام لها مقاصد ظراف ، وأسانيد طراف ، يروق الصغير معناها ، والكبير مغزاها » .

و يعترف ابن شرف بأنه وضع هذه الأحاديث بعد أن عاين ماصنع القدماء فى وضع كتاب كليلة ودمنة ، فأضافوا حكمه إلى الطير الحوائم ، ونطقوا به على ألسنة الوحش والبهائم ، وصنيع سهل بن هارون فى تأليف كتاب النمر والثعلب الذى نحا فيه هذا النحو فجاء بديع المراسلات مليح المكاتبات ــ كما اطلع على بعض مازور البديع ــ على حد قوله ــ من مقامات ، ثم يعقب على ذلك (٥٨) :

« فأقمت من هذا النحو عشرين حديثا أرجو أن يتبين فضلها ، ولا تقصر عما قبلها » .

ومع أنه يشير إلى تأثره بالقصص الحيوانى ممثلا فى كليلة ودمنة وكتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون وأنه لم يطلع على قدر كاف من مقامات البديع ، إذ يعجب من زعم رواتها أنها عشرون ، فإنه فيما يبدو قد ثقف طريقة البديع فى بناء مقاماته وسار على هديها فى أحاديثه أو مقاماته تلك ، وهذا واضح من قول ابن بسام (٥٩) :

« ولابن شرف مقامات عارض بها البديع فى بابه ، وصبّ فيها على قالبه »

ولابن شرف مقامات أخر غير هذه الأحاديث العشرين التى يبدو أنه كتبها أو أخرجها إلى الناس دفعة واحدة ، ولم يتأد إلينا منها سوى هذه المقامة النقدية ، فقد

---

(٥٧) أعلام الكلام : ١٣

(٥٨) أعلام الكلام : ١٤

(٥٩) الذخيرة : ٤/١٩٦ ، ولاحظ وهم محمد رضا الشبيبى فى قوله : « لابن شرف رسالة أومقامة أدبية نحا فيها نحو الحريرى فى بعض مقاماته ، وتناول بالنقد جمهرة من الشعراء ... » ، فابن شرف مات سنة ٤٦٠ هـ أما الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ فقد وضع مقاماته بين سنتى ٤٩٥ و ٥٠٤ هـ ، راجع : أدب المغاربة والأندلسيين : ٨٥ (القاهرة ، مطبعة الرسالة ١٩٦١م) .

أقام أحاديثه على بطل واحد ، وعبر عن ذلك بقوله في المقدمة :

« وعزوتها إلى أبي الريان الصلت بن السكن بن سلامان ، وكان شيخاهمّا في اللسان ، وبدرًا تمامًا في البيان ، قد بقى أحقابا ، ولقى أعقابا ، ثم ألقته إلينا من باديته الأزمات ، وأوردته علينا العزمات ، فانتحنا من علمه بحرا جاريا ، وقد حنا من فهمه زندا واريا ، وأدرنا من بره طرفا ، واجتنينا من ثمره طرفا ، ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل ، وغفلة الزمان تهتبل » . فإننا نرى ابن بسام يورد لابن شرف مقامة أخرى كاملة في ذخيرته تبدأ بقوله (٦٠) :

« حدثني الجرجاني ، قال : كان فتى بجرجان من أنباء الأقيال ، قد جمع إلى النهاية في المال الغاية في الجمال ، وكان مألفا للأدباء ، ومأوى للغرباء ، ورزقا للفقراء ، فلا يخلو منزله من أهل الإعدام ، فإني لعنده في بعض الليالي ، إذ استؤذن عليه لضرير فقير ، فأمر بإكرامه وإطعامه ، فلما فرغ من شانه ، استدعاه إلى إيوانه ، فدخل علينا رجل شيخ وافر السبال ، قد عمّه البياض بالكمال ، مطموس العينين ، مسترخي الحاجبين ، قد صلعت هامته ، وركعت قامته ، وقصرت مسافة خطاه وثقل جسمه على عصاه ، فسلّم بصوت ضئيل ، ودعا بلسان ثقيل ، وأقبل يذكر شبابه ، ويتذكر أحبابه ، وينوح على سالف زمانه ، ويندب ثقات إخوانه فرقّ له الفتى فأدناه ، حتى أجلسه على يمناه ، وصبّره وسلاّه ، ثم سمرنا إلى وقت النوم ، فتفرق سائر القوم ، ونام في مكانه ، مراعاة لحق ضيفانه » .

ويظهر مما تقدم أن للمقامة راوية جديدا غير راوية مقامته السابقة ، هو « الجرجاني » وأن لها بطلا جديدا أيضا هو هذا الشيخ الضرير الفقير الذى اعتنى ابن شرف برسم صورة واضحة له تبرز فيها صفاته وملامحه ربما أومأ بها إلى بعض معاصريه .

وتكون المفاجأة في القسم الثاني من المقامة حين انتبه الراوية من نومه على نبرة لم يعهد مثلها من مضيفه ، وكان قريبا منه فأرهف السمع لينتهي إليه الحوار التالي :

« فسمعت الاعمى يقول : ياسيدى أنا صرورة ، وثم ضرورة ، وقد طالت الغربة ، واضطرتني العزبة

---

(٦٠) الذخيرة : ٤/٢١٢–٢١٤ .

فقال الفتى له : فما وجدت لضرورتك سواى ، ولا لعزبتك حاشاى ؟

قال له : فإن أبيت إلا أن تمنع ، فدلنى على ما أصنع

قال له الفتى : أرى لك أن تتسرى

قال : ومن للصعلوك بالملوك ؟

قال : فتزوج

قال : والمحوج كيف يتزوج (٦١) ؟ »

ونلاحظ هنا مدى توفيق ابن شرف فى استخدام عنصر المفاجأة ، ثم فى حواره الذى جاء قصير العبارات سريع التناوب ، فى لغة سهلة ، وان جنح فيه بعد ذلك إلى شىء من الإفحاش باستخدام الألفاظ الصريحة والإشارات الماجنة ، وإن كانت فى الحقيقة لم تخرج عما يقتضيه موضوع المقامة .

و يتدخل الراوية ليتلاعب بالشيخ الفاسق ، وجعل يزين للفتى مادعاه إليه بمثل قوله : « ماسألك الشيخ فى عسير ، ولا حملك على خطير ، فهلا قضيته فأرضيته ؟ » ، وظن صاحبنا أنه ممن يميلون ميله ، فاستطال فى مراودة الفتى عن نفسه ، ولما فطن إلى جلية الأمر ، استبدل بملاطفته وتعلله : التهديد والوعيد الى أن كان من آخر أمره :

« ثم اهتزّ كأنه نسر مقصوص ، أو حمار مرهوص ، فقمنا وتركنا جانبه ، وجعل يضرب بعصاه ماقاربه ، فتركناه وشانه ، وأدمنا عيانه ، نصعّد فيه ونصوّب ، ونعجب ونعجّب ، فلم تزل شقشقته تهدر ، وعصاه تتكسر ، حتى كلّت يداه ، وانحلّت قواه . ولاح وجه الصباح ، وجئنا إليه بالمصباح فإذا هو كالجدار المهدوم ، والخدر المهشوم قد فارق النفس التّمرودية ، ومات الميتة الجاهلية ، فدفنه الفتى فى أطماره ، وسألنا كتمان أخباره ، وأَفْن لعمرى أىّ أفن أن يطمع لخبر هذا فى دفن ، بل هو منشور ، إلى يوم النّشور» .

وهذه المقامة فى جملتها تشهد لابن شرف بالبراعة ، فقد جاءت سجعاته رشيقة مقبولة بعيده عن التكلف والتعقيد وأحسن تصوير شخوصه وأدار الحوار بينها بخفة ومهارة ، كما استطاع أن يحكم تأزم الموقف لإبراز الصراع ، وأدارها على السخرية ممن تغلبهم شهواتهم خاصة من أصحاب الميل الشاذ ، الذى شاع فى عصره بين العامة والخاصة ، وجاهر به الشعراء والكتاب .

---

(٦١) كذا ولعلها : يتروج

ومع أن المصادر العربية التى بين أيدينا لا تعطينا الكثير عن حياة أبى عبد الله محمد بن مسلم ، وأن اسمه ليس من الأسماء التى يكثر دورانها فى كتب التراجم ، فإننا نستطيع أن نرد مقامته التى سماها « طى المراجل » إلى نتاج القرن الخامس الهجرى ، فذكر وفادته على المعتضد (٦٢) يعنى أنه أنشأها قبل سنة ٤٦١ هـ ، ونستطيع ردها إلى سنة ٤٥٢ هـ أو بعدها بقليل استدلالا بقوله فيها (٦٣) :

« ثم لـمّا حان إيابى ، وزُمتَّ ركابى ، إذا بكتاب المعتصم بالله (٦٤) إلى المظفر يذكر وفاة خاله المنصور بن أبى عامر (٦٥) ، فلزمنى الكتاب اليه ... »

وقد قدّم ابن بسام وابن سعيد لعمل ابن مسلم على أنه رسائل خاطب بها ابن أرقم صاحب ميورقة ، لأنه اختار صب عمله فى قالب الرسالة الإخوانية كما يظهر من قوله (٦٦) :

« إن أغببت على بعد الديار مكاتبتك ، وأقللت مع شحط المزار مخاطبتك فانى أخاطبك بلسان وداد ، وأناجيك فؤادا لفؤاد ، وإنما يتخاطب أهل بعد المكان ، و يتكاتب ذوو النأى عن العيان ، وأنت فى الضمير جائل ، فما تفيد الوسائل ؟ »

وهى كما يبدو من عنوانها (طى المراحل) وكما تؤكد ابن بسام عنها تدور على الحل والارتحال ، والانتقال من مكان إلى مكان ، ومن بلد إلى آخر ، ووصف أحوال هذه البلدان ، ورصد المشاهدات التى يعاينها فى إقامة أو تجوال شأنها فى ذلك شأن أدب الرحلة ، أما الجانب المقامى فيها فيظهر فى محاولة القص وتأزيم المواقف وتفريجها ، واستخدام أسلوب السجعات القصار كما يبدو من قوله (٦٧) :

---

(٦٢) راجع الذخيرة : ٣/٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، وهو عباد بن محمد بن إسماعيل ابن عباد المعتضد بالله ، وتوفى سنة ٤٦١ ، راجع الحلة السيراء لابن الأبار : ٢/٤١ بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٦٣ م .

(٦٣) الذخيرة : ٣/٤٣٩

(٦٤) هو المعتصم بالله محمد بن معن بن صمادح التجيبى ، توفى سنة ٤٨٤ هـ ، (الحلة السيراء : ٢/٨٤) .

(٦٥) هو المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، توفى سنة ٤٥٢ هـ (الذخيرة : ٣/ ٢٥٠) .

(٦٦) الذخيرة : ٣/٤٢٧ ، والمغرب : ٢/٤٠٥

(٦٧) الذخيرة : ٣/٤٣٩

« ومرت لنا الأيام لا نستطيع براحا ، ولا نلذ غدوا ولا رواحا ، فلما انقضت ليال خمس ، التفتتنا الشمس التفات البكر ، من خلال الستر ، وصمت الماء من خريره ، والهواء من صريره ، فقلنا قد يكون الرضى صماتا ، والإذن التفاتا ، وأخذنا فى التفويض ، وأسرعنا بالنهوض ومازلنا فى مسلكنا نموت ونحيا ، ونتقلب بين الآخرة والأولى حتى اصطلينا بنار الحباحب سيف الدولة أبى الفتوح ، فقابل بوجه طلق وخلق سمح ، فلما صرنا فى ذراه وكنفتنا نعماه ، أنشدنا : فقل للسماء ارعدى وابرقى فإنا إلى المنزل »

كما يظهر هذا التأثير المقامى فيما وشحهابه من فنون أدبية كرسالته إلى ذى الوزارتين الكاتب أبى محمد بن عبدالبر ، ورسالته فى تعزية المعتصم بالله وتهنئته ، ورسالته إلى الوزير أبى الوليد بن زيدون (٦٨) ، و يظهر أيضا فى إشباعه الوصف على نحو ماترى فى وصفه دار المعتصم ومائدة طعامه ، والمسجد الجامع ، ومصحف عثمان ، ونقتطف من ذلك قوله فى صفة المسجد (٦٩) :

حتى انتهينا إلى المقصورة فألفينا سقفا من فضة ، ومعارج إلى الجنّة قد قُرّط سمكها بالذهب الأحمر ، والفلذ الأخضر ، و بُلّط سطحها بماء الجوهر ، وكافور المرمر ، فكأن قبابها قد عُقِدَتْ بالجفون الدُّعْج والحواجب البُلج ، وكأن درجاتِ منبرها تكاسيرُ الشعور مالتْ على متون الحور ، أو مناطق الأعكان ، ضُمّتْ على الخصور اللدان أُلّفَ من عاج كالمباسم ، نُقِشَ نَقْشَ الدراهم ، وأبنوس كالغدائر ، زرو طُبعَ طبع الدنانير ، وصندلٍ كأطرافِ البنان كتبتْ بِهُدبِ الأجفان » .

وأخيرا يظهر الجانب المقامى فى تلك المخالص المدحية المتعددة ، التى كانت هدفا وظف له الكاتب عمله ، وأفاض فيه ، خاصة حين انتهى إلى مدح المعتضد .

ومهما يكن من أمر فقد استطاع ابن مسلم أن يمزج فى عمله بين خصائص الرسالة الإخوانية ، وأدب الرحلة ، والطابع المقامى فى توافق ربما كان السابق إليه وكان السبب فى إعجاب أهل الأندلس بهذا النمط من الكتابة واحتذائه كما نرى

---

(٦٨) راجع الذخيرة : ٣/٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٦ على الترتيب

(٦٩) الذخيرة : ٣/٤٤٢

من ملاحظه ابن بسام العابرة والدقيقة في الوقت ذاته حين قدم لمتطفاته بقوله(٧٠) :

« ولم أظفر عند وضعي هذا الديوان بشيء مما له من الإحسان إلا بفصول من رسائل سماها طي المراحل ، سبق فى ميدانها عفوا ، وتصرّف بين حسنها وإحسانها تصرفا حلوا »

* *

ثم نلتقي بالوزير الكاتب ابى حفص عمر المعروف بابن الشهيد التجيبى الذى وصفه ابن بسام بقوله(٧١) :

« وأبو حفص هذا فى وقتنا كان فارسَ النظم والنثر ، وأعجوبةَ القِرانِ والعصر ، ونهايةَ الخَبَر والخُبْر ، رَقَمَ برُودَ الكلام ، ونظَمَ عقودَ النثر والنظام »

وقد أورد ابن بسام قطعتين من نثره تتضمن الأولى رقعة خاطب بها بعض إخوانه ، ولاتخلو من روح المقامة(٧٢) ، أما الأخرى فهى مقامة صرح ابن بسام بأنه حذف بعض فصولها لطولها(٧٣) ، وقدم ابن الشهيد مقامته بالحديث عن صناعة الكتابة ، وما أصابها فى عهده :

« إن صناعة الكتابة محنة من المحن ، ومهنة من المهن ، والسعيد من خدمَتْ دولةَ إقباله ، والشَّقِيُّ من كانت رأسَ ماله ، والعاقلُ من إذا أخرجها من مثالبه لم يُدخلها فى مناقبه ، لاسيما وقد تناولها يد(٧٤) كثير من السُّوَق ، و باعوها بيع الخَلَقَ ، فسلبوها تاج بهائها وَرِداء كبريائها ، وصَيروها صناعة يكاد الكريم لايُعيرها لحظَه ، ولايفرغ فى قالبها لفظه ، إذ الحظُّ أن يعثرُ الكرام إذا وَلِىَ الأعلاجُ ، وأن تستنعج الآساد إذا استأسدت النِّعاج ... »

و يبدو أن أول المقامة يقع فى الاقتباس التالى حيث الدنيا فى زمن الربيع « وأخذ آذار على ما اعتاد ، فحلىّ الوهاد والنّجاد » ، وفى هذا الوقت « حنّت

(٧٠) الذخيرة : ٣/٤٢٧

(٧١) الذخيرة : ١/٦٧٠

(٧٢) الذخيرة : ١/٦٧١ــ ٦٧٤

(٧٣) الذخيرة : ١/٦٧٤ــ ٦٨٥

(٧٤) كذا ، وأرى إسقاط هذه الكلمة ، ولعلها تحريف : بعد .

نفس الفنية سيادها ، إلى كره عادها ، من الإحساس إلى الاتباع ، والنسبة لنفوس الألأف والأشياع » ، ومن هنا يبرز ابن الشهيد لمقامته التي نتوالى فصولها في مشاهدات رحلة طويلة مع هذا الفقيه الذى قد يكون ابن الحديد الذى وجه إليه الكلام في صدر مقامته .

ثم يعرض لنا ابن بسام من هذه المقامة الطويلة لوحة يمكن أن تكون مقامة بنفسها وتبدأ هذه اللوحة بميلهم إلى منزل بدوى ، ذى هيئة وزى .

وابن الشهيد هنا يجيد في رسم شخصية هذا البدوى الذى يتعلق بالمثل الأخلاقية من السماحة والكرم والاعتداد بأخلاق البداوة ولكنه في الحقيقة لا يأخذ بشيء من ذلك لما تنطوى عليه نفسه من بخل ، ولما أصابه من لمسة مدنية شوهت أديم بداوته ، بأصباغ حضرية أفسدت عليه طبيعته الأولى بما فيها من بساطة وخشونة وكرم ، وجعلته يركن إلى التعلق بأهداب المظاهر في زيه وفى رياش بيته ، فخرج عن طبيعته بحيث لم يعد بدويا حقا ، ولن يكون حضريا أبدا ، وإنما هو خليط متباين متنافر من هذا وذاك .

هذا — عندى — ماعناه ابن الشهيد حين قال :

« وملنا إلى منزل بدوى ، ذى هيئة وزى :

لـه مـنـزلٌ رَحْبٌ عَرِيضٌ ، مُزَرَّبٌ   بـأعْـوادِ بَـلُّـوط وطَـوْجٍ مُـفَـتَّـلِ
تَـرَى بَـعَـرَ الآرامِ فى عَـرَصـاتِـهِ   وقِـيـعَـانِـهِ كـأنَّـه حَـبُّ فُلفُلِ »

أين هذه الصورة من تلك ؟ ولكنهما جميعا يتنازعان نفس هذا البدوى المسكين يجمعهما ايقاع حياته ، وترتقهما قافية أيامه .

وها هو ذا يمثل دور البدوى الذى نسيه ، أو كاد ، حين ينشط إلى استقبال ضيفانه ، لكن أضغاث بداوته تختلط بتطلعات حياته الجديدة فى أقواله وأفعاله :

« فهش وبش ، وكنس منزله ورشّ ، وصيّر عياله إلى ناحية ، وجمع أطفاله في زاوية ، وجعل يدور كالخذروف أمام الصفوف ، يتلقى الواحد منا بعد الواحد ، يأخذ بركابه ، ويكشر عن نابه ، ويتمثل :

أَخْذى كذا بركاب الضّيف أَنْزِلُهُ   ألذُّ عِندى من الإسْفَنْجِ بالعَسَلِ
أو مِن رَغائِف كانُونٍ مُلَهْوَجَةٍ   أو رائِبٍ بقَرِيّ جَيِّدِ العَمَلِ
أو مِن خُوارِ عُجولٍ فى مَسارِحِها   أو من رُكُوبِ الحَميرِ الفُرْهِ فى الكَفَلِ »

وعندما ينتهى ابن الشهيد إلى بيت هذا البدوى ، يلحظ فيه اختلاط الحضارة بالبداوة كما اختلطا فى نفس صاحبه ، فهو :

« بيت مُكنَّس ، مُنَّوع مُجنَّس ، قد جلَّله حْصْرا بلدية ، وغشاهُ بُسْطاً بَدَوِيَّة ، ومدَّ فيه شرائط وحبالاً ، كأنه يريد أن يْخرج خيالاً ، وعلَّق منها غلائل وُملاءات ، وهمايين وسراويلات ، وكم شئت من خِرَقٍ مُعصفَرة ، وعصائِبَ مُزعفرَة . . . »

تأخذه الدهشة (٧٥) ،ولا يملك نفسه من مناقشة صاحب الدار فى ذلك ، فيدور بينهما الحوار التالى :

« فقلت : ياصاحب المنزل ، هنئت ومُنِّيت ، لقد أوتيت وأوتيت ، وجُعلتُ أرقَّقُ عن صَبُوح ، وأقول :

متى كان الخيام بذى طلوح

من أين للبداوة ، بهذا الَّرونق والطَّلاوة ، وكيف حتى أغرْت على حانُوتِ العطَّار ، ومتى نُقِل سوق الَبزِّ إلى هذه الدّار ، لقد قرَّت بك الأعْيُن و سُرَّت الأنفس ، هذا زىّ العروس فأين العرس ، فضحك البدوىّ ملء فيه ، وتوسمت الازدراء فيه ، وأنشد :

ياأخى نحنُ على أنـ	ـنا نَتاجٌ بَدَوِىُّ
سادةٌ ناسٌ لنا فى	هَذِه الدُّنيا دَوِىُّ
عندنا إنْ جاء ضَيْفٌ	شِبَعٌ جَمٌّ وَرِىُّ
وَسَرِيرٌ حَشْوُه ريـ	شُ الفَرارِيجِ وَطِىُّ
ودِرامَاتٌ كَثيرا	تٌ وهَيئاتٌ وزِىُّ »

على أن هذا التباهى ، الذى يكاد يتنكر فيه الرجل لأصله البدوى ، يخرج إلى غير طائل ، فها هوذا يغرى صبيانه بديك هرم هزيل ، يعتزم أن يجعله قرى ضيفانه ، ولكن الديك لا يستسلم لرغبة صاحبه اللئيمة ، بل يحاور صبيانه

(٧٥) لا أرى هنا مايراه إحسان عباس (تاريخ الأدب الأندلسى ـ عصر الطوائف والمرابطين : ٣٠٩) حين قال : ولعله سخر من البدوى حين أخذ يبدى إعجابه بما يملك من زهيد المتاع ... » فقد وصفه ابن الشهيد بقوله : « وأودعها من عتاد العروس فاخره ، ومن طيب البادية أوله وآخره » .

ويداورهم، ويبرز لنا ابن الشهيد هذه اللمحة أو « اللقطة » في مشهد تمتلئ يشعرنا بالكثير من التحرج والرثاء لموقف صاحبنا، وإن لم يستشعر هو شيئاً من ذلك :

« ثم قام من مكانه، ودعا بصبيانه، وأغراهم بديك له هرم، ليذبحه في طعام السرة، فأجَرّوه لأشهم الهاوي به، من زاوية إلى زاوية، حتّى سقط الدّيك سقوط طَليح، جسماً بلا روح، فأقبلوا إليه، متهافتين عليه، وهو يضطرب اضطراب المخنُوق، ويستغيثُ بالخالق والمخلُوق، واتّفق لِفرْطِ حنقه، ومؤلم تألّمه، أنْ عضّ على أيديهم عضّة وانتفضَ منهم نفضَة، وصَعِدَ في بعض الجوائز، وحمِد الله حمد الفائز، وتمثل :

إذا غَرِقتَ ببحرٍ مِنَ الرَّدَى فيَّاضِ
فلا يكُنْ بهلاكٍ عليكَ ظنُّكَ قاضِ
فليسَ في كلِّ وقْتٍ سيْفُ المنيَّةِ ماضِ »

وهذا الديك العاقل الناطق، أو الذى أنطقه ابن الشهيد، يقوم بدور أشبه بدور بطل المقامة، ونستطيع أن نلمح في أبياته هذه أنه قد تدبر أمره، وعرف الطريق إلى خلاص نفسه من هذا المأزق المتأزم المتلاحم :

« وحان وقت الظهيرة، فصفَّقَ بجناحيْه ثِنْتَين، وصرخ صرختين، واقتدى به المؤذّنون، وتجمهر المؤذّنون، حتى إذا قُضِيت الصّلاة استصرَخَهم فأصْرَخُوه، وتواثبتْ إليه السّادةُ والوجوه، فقال لهم الدّيك :

أيها السادة الملوك، فيكم الشابُّ مُتّع بالشباب، والأشْيَبُ نوّرَ شَيْبُه مع الكواعب والاتراب، وقد صَحِبْتُكم مُدّة، وسبّحتُ الله تعالى على رؤسكم مرارا عِدّة، أُوقظُكم بالأسْحَار، وأُؤذِّن بالليل والنهار، وقد أحسنتُ لِدَجاجِكُم سِفَاداً، وربّيْتُ لكم من الفراريج أعداداً، فالآن حين بَلى في خدمتكم تاجِي، أُنعى إلى دَجَاجِي، وتُنحى الشَّفرَةُ على أوداجي ؟! وحين أدركنى الشّيْخ يُمزّقُ لحمى ويُطبخ ؟ ياللكرام من ذُلّ هذا المقام!

وجعلَتْ دُمُوعُه تسفَحُ من دمِه، والحُزْنُ يُطبقُ على فمه، ثم غُشى عليه فاجتمعت البداوةُ من كل ناحية إليه، يضربُون وجههُ بالماء، ويُخلصون له في الدُّعاء، ثم أفاقَ من غَشْيَته، وأنشد :

عَلامَ يُقتَلُ شيخٌ مِنْ كُلِّ ذنبٍ بَرِىٌّ؟
مُحَقَّقٌ مُتَحَرٍّ مُوَحِّدٌ سُنِّىٌّ
هل نَصَّ هذا كتابٌ أو قالَ هذا نَبِىٌّ؟!
لاذَنْبَ لِى غَيْرَ أنِّى مُؤَذِّنٌ بَدَوِىٌّ »

وهكذا استطاع ديكنا بخطبته البليغة أن يستميل قلوب القوم ، كما استطاع بغشيته المصطنعة أن يثير إشفاقهم ، ثم أحكم التمكن من قلوبهم بأبياته المتوسلة المؤثرة « فرقت له أنفس القوم ، وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم » .

ولكن الأخير مصمم على رأيه يخادع محدثيه عما هم فيه بعلل متباينة فتارة لأن هذا الديك ذو فخذ وصُدْره ، وتارة لأنه أصابته عليه ضُجرة ، وأخرى لأنه وصَّى عن أبيه عن جده أن يقرى ضيفه أحسن ماعنده .

وإذن فلا على الديك فى أن يناظر صاحبه فى أمر نفسه خالطا غلظته عليه بالتلطف إليه :

« فقال الديك : لاأكذب ، الحق طريق مُستبين ، واتِّباعُه مرؤةٌ ودين أما إنَّه لعلى خُلُقٍ عظيم ، كريم ابنُ كريم ، غير أنّه لؤم فى أمرى وأفرَط وغَلَط ماشاء أن يغلط ، أما علم أنّ هَرماتِ الدُّيُوك ، ليستْ من مطاعم الملوك ، وأنها بالأدوية أشبه منها بالأغذية ؟ ! وأُقسمُ لواتّخذَ بُرَمةً من فؤادِ مَهْجُور ، ووضَعَنى من مثله على تَنُّور ، لاقَضَى بِى حاَجة ، ولاعَدِم منّى نُيُوّا وفجاجَة ، وإنَّ له فى بَنِىَّ مالا يَجدُه فىٌّ من طيبِ المَشَمِّ ، ولذَّةِ المَطعَم ، والتَّوليد لأحْمَرِ مايكون من الدّم وأَنَّى كالفَرُّوج اسفيدَ باجَا ، لمن أراد أن يَعدِلَ مِزاجاً ؟ »

وهكذا استطاع الديك أن يفحم صاحبه ، وأن يخجله فيعدل عن ذبحه ، و يفوز بالحفاظ على حوبائه .

و ينهى ابن الشهيد مقامته هذه ، أو هذا المشهد من مقامته الطويلة بقوله :

« فزكّى قولَه كل من حوله ، لم يألوه تعظيما ، واتخذوه من ذلك اليوم حكيما ، وصرف البدوىّ من ألطافه ، ماأحسنَ به قرى أضيافه ، وختم نوبة بِرِّه ، بالرغبةِ فى بسطِ عُذره ، فسمعنا منه ، ورحلنا سحرا عنه » .

وتتوالى بعد ذلك فصول نقلها إلينا ابن بسام من هذه المقامة الطويلة. صحيح ولكن بعض اقتباسات ابن بسام تأتي متبسرة لا تكاد تنبئ عن شيء وربما استوقف ابن بسام عندها إعجابه بالصنعة اللفظية أو إجادة الوصف. من ذلك وصف عين الماء ووصف الصيد. ولكننا نتوقف عند إحدى هذه اللوحات عندما يبدأ ابن بسام اقتباسه من خلال كلمات رجل تلتقي به الجماعة فيحدثها عن مغامرة له في أحد الأديرة حيث الخمر والطرب والفتنة.

وكان هذا المحدث بليغا في وصف ماعاين هنالك بحيث تحرج القوم من استرساله في هذا الحديث بحضرة فقيههم، وإن نفوسهم لتشرئب إلى استزادته، وجعلوا يظهرون ضروب التعفف وألوان التأفف، ولكن سرعان ماتغير حالهم عندما طلعت عليهم شموس وأقمار من فتيات وفتيان ومعهم قسيس أقسم على الجماعة بحسن هؤلاء أن ينزلوا عليهم، فلم يملكوا مع هذا اليمين إلا أن ينقادوا فكان من أمرهم ما كان:

« .... فلما أكثر محدِّثنا بحضرة الفقيه، من هذا التشبيه، ومن هذه المحاسن، الُمحركاتِ لكثير من السَّواكن، قطَّبْنا له وجُوهَ الاستكْرَاه وعضضنا له على الشِّفاه، فبينا نحنُ كذلك نُكثِر لغَطاً، ونَرَى الُحلولَ بالمسيحيِّين غَلَطاً، إذ نظرنا إلى اطِّراد صفوف من أعطاف خَنِثة وخصورٍ هيف، وشُموس وأقمار، على أفلاك جُيوبٍ وأزْرار، لاسيوف إلاَّ من مُقَل، ولا دَرَقَ إلا من خَجَل، ولا عارض إلا من خَلوق، ولا صناعة غير تَخليق، ولا اسم غير عاشق ومَعشُوق، فتَشَفَّع القِسِّيس بُحُسنِ خدودهم، وأقسَم بِنِعْمة قدُودِهم، إلاَّ أجْزَلْتُم المِنَّة، وثَنَيْتُم الأعِنَّة تعريجا الينا، وتحكَماً في المال والَولِدِ علينا، فكرُمَت الشَّفاعَة، وقلنا السَّمعُ والطاعة.، وجُلنا جَوَلانَ الزنانير، على هِيفِ الُخصور، بما بَقِي من الَطريق، غص الَدماليج بخِدَال السُّوق، حتى وافينا الَباب، وانخنا الَّركاب، وتولى الحُرِّ، ضُروباً من اَلبِّر، غير أنه قنَّع بالدنّ وجه مُدامه، تقنُّع الورد بأكمامه، وقضانا من الإكرام ناقلةً وفرضا، وشددنا الجياد عنه ركضا .....)

لذا حق لابن الشهيد عندما رأى فى الطريق أطلال كنيسة قديمة أن يقول :

أنـى تـأتـت لابـن ادمَ قُـدْرَةٌ حتى استقام وتَمَّ ذاكَ المَنْصِبُ
ومـن أىِّ أرضٍ كـانَ رائِـعُ مَـرْمَـرٍ كَـسَـواعِـدِ الغِزْلانِ فيها يُجْلَبُ ؟
كـم صَـادَ إبـليس بها من تائِبٍ بحبـائِـلِ أَلْـقَـى بـهـنَّ تَـرَهُّبُ !
وكم ابتَنَى القَسِّيسُ فيها مِنْبَراً .مـن جُوُذَرٍ وَبَـدَا عَلَيـه يَخْطُبُ !
سَـقْـيـاً لهـا مـن دارِ غَـيٍّ لم يَـزَلْ فيها كـريـمٌ بـالـمِـلاحِ مُعَـذَّبُ
كـلاًّ ومـا زالَـتْ نُـجـومُ مُـدامَـةٍ فيـهـا بـأفْـوَاهِ الـنَّـدَامَـى تَـغْـرُبُ
بـئـس الـمُصَلى إنْ أَرَدْتَ تَـعَـبُّـداً فـيـه ولـكـن كـان نِعْمَ الـمَشْرَبُ

وفى اللوحة الأخيرة فيما نقله ابن بسام من هذه المقامة يلتقى الجمع بفتى من فرسان النصارى جميل الطلعة ، وصفه ابن الشهيد بقوله :

« ثم لم نزل نسرى سُرَى النجوم فى الدياجى ، إذ تلقانا شاب كما ذُهِّب عقيق خدَيه ، ونمَّ شاربُه بالتّذكير عليه ، متقلّد حسامٍ كأنما طُبِعَ من لحظه لا من لَفْظِه ، على جوادٍ ظمآن الأسافل كخصْرَيه ، ريانِ الأعالى كِرِدْفَيْه ، تستعيذُ عُيونُ البَرَرةِ من النَّظرِ إليه ، وتزدحم أطماع الفَجَرَةِ حَوالَيْه :

ذو مُـقْـلَـةٍ شَـهْـلاء رُومـيَّـةٍ وذُو لِـسـانٍ عـربـيٍّ مُـبِـيـنْ
قـلـتُ وقـد عِـيـبَ بِـتـشـلـيـثِـه مَـقَـالَ ذِى رأىٍ وعـقْـلٍ رَصِـيـنْ
طَـلْـعـتُـه الـدُّنـيـا ويـا قـلَّما يُـجـمَـعُ لـلإنـسـانِ دُنـيًا وديـنْ »

لكن الفتى يقبل عليهم باكيا ليخبرهم أنه هارب من النصارى لدخوله فى الإسلام وطلب أن يؤذن له بمخاطبة الفقيه ، فلما أذن له حياه وقال :

« أيها الفَقيه ، للأشياء غايات تنتهى إليها ، ومقادير تجرى عليها ، أما والخلاق العليم ، والفاطرِ الحكيم ، الذى أسعد قوما بالهداية وأثابهم عليها ، وأشقى آخرين بالضّلالة وعذبهم بها ، لقد أنحلتنى عبادة الطواغيت فعبدتُ الصليبَ ، وقرعت الناقوس ، وفعلتُ كلَّ ما قرَّت به عينُ إبليس ، قَدَرٌ لم يكن ليخطئنى ولا يتخطانى ، إلى أن استنْقَذنى رَبِّى وهَدَانى ، وأنا أشهَدُ أيّها الأشهَاد أن الله إلهٌ واحدٌ ، ليس له ولد ولا والد ، كان ولم تكُنِ الأكوان : لا أرضُ ولا ماءُ ، ولا دُخان ، مُخترِعُ الكلِّ ومنشِئه ، ومُعيدُه ومبدِئه ، له المَثَلُ الأعْلَى ، والأسماءُ الحُسْنَى » .

عند هذا الحد ينتهي ما اقتطفه ابن بسام من هذه المقامة .

وإذا كنا لا نذهب مع الدكتور إحسان عباس في قوله (٧٦) :

« .. المقامة هنا تطلق على قصة (نزهة) و وصف مشاهد وتضمين للوصف النثرى بالشعر ، وليس وراء مفهومها الظاهرى فيما أرى أية رموز أرادها صاحبها ــ أما لماذا قدمها لابن الحديدى ، وهل لها من صلة بالمقدمة عن فن الكتابة ؟ وهل يمكن من سياقها كله استنتاج غاية وراء إظهار البراعة البلاغية فتلك أسئلة لا نستطيع أن نجيب عليها . »

فإننا لا نستطيع أن نوافق الباحث عبد الرحمن عبد الرءوف الخانجى حين يرى أن هذه المقامة تعتمد على الإيحاء من خلال الرمز بشيء من المعانى السياسية ، و يعلق على حكاية البدوى والديك بقوله : (٧٧)

« هنا تنحو المقامة منحى سياسيا فى الرمز ، خاصة اذا علمنا أنها مهداة إلى الشيخ الجليل (ابن الحديدى) وهو فقيه كان له دور بارز فى التاريخ السياسى للأندلس على عهد الطوائف .... فهذا الديك الهرم المسكين المستباح دمه ظلما وعدوانا هو ، فى تقديرى ، فقيهنا ابن الحديدى » .

فهذا الرأى الذى ذهب إليه ، والذى يزعم معه أنه قد وجد الإجابة عن تساؤلات إحسان عباس ، لم يقدم عليه دليلا واحدا مقنعا .

ولو أننا تمادينا مع الخانجى فى خياله المفرط لقلنا له إن مصير ديكنا يختلف عن مصير فقيه ابن الحديدى ، ولكن يكفى هنا أن نذكر أن الفقيه ابن الحديدى الذى يعنيه قد توفى سنة ٣٦٨ هـ (٧٨) ، أما ابن الشهيد فقد كان حيا يرزق فى حدود الأربعين وأربعمائة بالمرية حيث قابله الحميدى (٧٩) صاحب جذوة المقتبس

---

(٧٦) تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر الطوائف والمرابطين : ٣١٠

(٧٧) فن المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلس : (خط) ١٨٧ ــ ١٨٨

(٧٨) راجع الذخيرة : ٤/١٥٢ ، ١٥٤

(٧٩) جذوة المقتبس للحميدى : ٣٠٢ (القاهرة ، الدار المصرية للتأليف ، مطابع سجل العرب ١٩٦٦ م) ، ونقل ذلك عنه الضبى فى بغية الملتمس : ٤٠٧ (القاهرة ، دار الكاتب العربى ، مطابع سجل العرب ١٩٦٧ م) .

وكتب عنه طرفا من أشعاره ، و يتضح لنا من هذا أن الفارق الزمنى بين الرجلين يتجاوز اثنين وسبعين عاما ، وهذا ينفى أن يكون ابن الشهيد قد عايش ابن الحديدى وتأثر بما جرى عليه ، فضلا عن أن يهديه مقامته .

ولا أدرى كيف وفق الخانجى بين أن تكون المقامة مهداة إلى ابن الحديدى ، وأن يكون فيها رمز إلى حادثة قتله .

وعلى أية حال فإن ابن الشهيد لم يهد مقامته لرجل مقتول أومنكوب ، ولكنه أهداها إلى رجل سعيد الحظ فى دنياه وهذا ظاهر فى قوله(٨٠) :

« كحركات الفقيه ابن الحديد ، فإن أيامه على مناكب الأيام أردية شباب وفى مفارقها تيجان نخوة وإعجاب » .

لاشك بعد ذلك فى أن هذا ابن الحديد رجل آخر غير ابن الحديدى الذى أشار إليه إحسان عباس إشارة خاطفة(٨١) ، فالتقطها الخانجى و بنى عليها ما بنى .

والذى أراه فى هذه المقامة التى تبدو لنا من خلال اقتباسات ابن بسام أشبه ما تكون بقصيدة جاهلية متعددة الأغراض ، ويختلط فيها الطابع المقامى بالقصص الحيوانى وأدب الرحلات ، تجمع بين أطرافها الرغبة فى الهزل الذى يخرج أحيانا الى السخرية اللاذعة التى تقوم على إبراز التناقض والتباين الموجودين فى نفوس الناس وطبائع الأشياء ، نلمح ذلك فيا رواه عن أقوال البدوى المتحضر وأفعاله وهيئة بيته ثم فى صورة القس الذى يقود على من معه من أبناء مِلّته ، بل فى صورتهم هم وفقيهم حين استباحوا لأنفسهم كرم هذا القس ، ونلمحه أيضا فى حديثه عن الكنيسة التى بنيت أصلا لتكون دارا للعبادة ، ولكن ما يجرى فيها جعلها دار لهو وفجور، وفى صورة ذلك الفتى البارع الجمال الذى استوفى نصيبه من الدنيا حتى ليظن أن لانصيب له فى الدين ، وإن كنا لا ندرى آخر أمره معهم .

ونستطيع أن نقول إن ابن الشهيد توجه إلى إبراز هذه المعانى المحاليات فى معارض هزلية بوعى ، وقد نص عليه فى مقدمة مقامته حيث يقول(٨٢) :

---

(٨٠) الذخيرة : ١/ ٦٧٥

(٨١) تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر الطوائف والمرابطين : ٣١٠

(٨٢) الذخيرة : ١/ ٦٧٥

« ... ولئن مرّت بك كلمات مُحاليّات ، تنظمها سلوكُ هَزْليّات ، فإنما هى أوصاف طابقت موصوفاتها ، وحُلّى على أقدار مُحليّاتها ، والبليغ كالجوهرىّ واجد التعب ، فى نَظم الدر أو المخْشَلب ، وكالصّائغ واجدُ العناء فى سَبْكِ الصُّفر أو الفضة البيضاء ، وكالعقاب وَاجد الانهواءَ على الصقر أو المُكّاء ، والعاقل مَن بَرَزَ يومَ السُّرور فى زىّ الأعياد ، و يوم الحُزن فى ثياب الحداد ، وسيّان فى الفجاجة والبَرد ، مَنْ جَدّ عند الهَزْلِ أو هَزَلَ عند الجدّ »

لذا فإننى لا أتفق مع عبدالرؤوف الخانجى حين حاول أن يستشف من هذه المقامة بعض الملامح الاجتماعية والحضارية للبيئة الأندلسية بطريقة مباشرة كقوله (٨٣) :

« ... ثم تمضى واصفة منازل الريف الأندلسى من الداخل والخارج ، تتحدث عن فن البناء ، بل وعن (الديكور) والزينة داخل الدار» .

إن مثل هذا القول مرفوض تماما لأن ابن الشهيد هنا لا يصف أهل البدو أو أهل الريف الأندلسى و بيوتهم ، وإنما يصف رجلا بعينه ، ربما لم يكن له وجود إلا فى خياله ، وأراد أن يصنع منه إحدى عجائب البحر، فى نفسه وزيّه و بيته وعلى هذا النحو لا ينبغى لنا أبدا أن نتصور أن كل فقهاء الأندلس كانوا يقبلون على الشراب والفسق ، أو أن الكنائس الأندلسية جميعا تخلت عن أداء مهامها الدينية وصارت مواخير وأوكار لذة ومجون .

* *

وفى المرية ، وفى عهد ابن صمادح (٨٤) أيضا عاش الأديب أبومحمد بن مالك القرطبى مدة يمدح صاحبها ، و يبدو أن الرجل عاش حياة بائسة جعلت صوت المال يعلو فى شعره ، ويخرجه إلى التصريح بالسؤال فى لهجة منفرة على نحو قوله لابن صمادح (٨٥) :

---

(٨٣) فن المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلس : (خط) ١٨٦

(٨٤) سنة ٤٤٣ ــ ٤٨٤ هـ

(٨٥) الذخيرة : ١/ ٧٤٠

مصى المطر والاضحى ولا نيْلَ يفتصى فيمَ اخمصت وحدِى اليك مَطالِبى ؟
وكم عِفْتُ قِدماً من جزيلِ مواهبٍ وقد خَطبتْنِى من جميعِ الجَوانبِ
سأرحَلُ عنكُمْ دُونَ زادٍ لبُلْغَةٍ وتلك عَمرى سُبّةٌ فى العَوَاقِبِ

و يبدو أنه سئم هذا اللون من التسول الصريح وشكوى الفقر فى أشعاره ، فلجأ إلى نغمة جديدة يلتمس منها لنفسه بعض العزاء عن واقعه المر ، و يتسامى بها على خله الوفى الآخذ بخناقة (٨٦) :

« ومازال يعلن باضطراره ، و يشكو الفقر فى أشعاره ، حتى أعياه ذلك فجعل بعد يصف الغنى واليسار هنالك ، تعريضا وتطييبا ، فن ذلك قوله من جملة قصيدة :

ومـا نَذْكُر الإعدامَ إلاّ تَخَيُّلاً لكثرةِ ما أغْنَى نَدَاهُ وما أقْنَى .
وأكثرُما نخشاهُ طُغيّانُ ثَرْوَةٍ فإنّا نرَى الإنسانَ يطغى إذا استغنى

فقال له بعض أصحابه : ومن أين هذا الغنى وقديما تشكو الفقر؟

ومضوا معه إلى منزله فما وجدوا معه غير قُلَّة فخّار وقدح للماء ، ونحو ثمانية أرطال دقيق فى مخلاة » .

ومع أن ابن بسام يعترف بأنه لم يقف على الكثير من شعره ونثره (٨٧) :

« ولم يقع إلىّ من شعره ونثره إلا نبذة كإيماء المُريب بذاتِ صدرِه » أطلعنا على مقامة له اقتضها لطولها وساق بعض فصولها (٨٨) ، ومن هذه الفصول يتضح أن موضوعها الرئيس هو مدح ابن صمادح واستمناحه ، و يبدو أنه أنشأها حين انتصار ممدوحه على بعض أعدائه ، وهو يصف لنا جو المعركة وصفا تفصيليا يظهر فيه قدرته اللغوية (٨٩) :

---

(٨٦) الذخيرة : ١/٧٤٠

(٨٧) المرجع السابق : ١/٧٣٩

(٨٨) المرجع السابق : ١/٧٤١ـ٧٥٢

(٨٩) المرجع السابق : ١/٧٤٢

« لا نسمع إلا همهمةً وصهيلا ، وفعقة وصَليلاً ، فخلتُ الأرضَ تميلُ ميلاً ، والجبالَ تكونُ كثيباً مهيلاً ، لا تعلمُ لأصواتِ تلك الغماغم وضَوْضاةِ تلك المماهم ، من وَ..واه صهيل ، ودَرْداب طُبول ، أزئيرُ لُيوث بآجام ، أم قعقعة رعد فى ازدحام غمام ؟ . . . »

وحين يلوح وجه ممدوحه تتغاير الصورة :

« متى لاح لنا من مَلِك الأملاك ، وثالث القمرين فى الأفلاك ، وجه جلّى هَبْوةَ ذلك العِثْير ، والعجاج الأكدر ، فحين جَلَتْ غرّتُه الغرّاء الغُبار ، لم نَدْر أبدرُ الليلِ أمْ شمسُ النّهارِ » .

ثم ينتقل إلى وصف أسلحة المعركة وعزيمة ممدوحه ، واستسلام عدوه له ويحذر المغترين بسماحة خلقه من صواعق غضبه ، ثم يظهر الغبطة لاختياره هذا الممدوح دون سواه :

« فلله أىّ مراد رُدْتُه ، وأىُّ مَوْرد وَردْتُه ! لم أكنْ ممّن غَرَّه السّراب ، حين أعْوزه الشَّراب ، ولا كنتُ كمنْ زجرَ الطير بالنّجم والدّبَران ولا ممن سقط العشاء به على سرْحان وولا كمن قال مَرْعًى ولا كالسَّعْدان كلاًّ ! ان مملوكك ألقى أرْواقه ، حيثُ مدّ المجدُ رُواقَه ، بحيث يُعْتصَرُ النّدى من عُوده ، و يُرتَشَفُ صِرْفُ الجُودِ من ناجوده فانْتقَيْتُ الجارقبل المنزل ، و بوّأتُ رَحْلِى فى المحلّ المُبْقِل ، ورتعتُ فى ..رالغمام المُسْبل »

ثم ينتقل إلى التهويل فى مدح ابن صمادح :

« ما رأيتُ وجها أسمَح ، ولا حِلْما أرجَح ، ولا سَجيّةً أسجَح ، ولا بشْرا أبْدَى ، ولا كفًّا أندى ، ولا غُرّةً أجْمَل ، ولا فضيلةً أكْمَل ، ولا حلقا أصفى ، ولا وعدا أوفى ، ولا ثوبا أطهر ، ولا سَمْتاً أوقر ، ولا أصْلاً أطيب ، ولا رأيا أصوب ، ولا لفظا أعذب ولا عِرضا أنقى ، مما خصّ الله به ثالث القمرين ، وسراج الخافقين ، وعماد ..ثقلينْ ، المعتصمَ بالله ذا الّر ياسَتيْن دامت راياتُهُ منصورة ، وآياته منظورة . . . . »

وهى كما نرى عبارات مرصوفة محفوظة طالما دارت فى شعرنا ونثرنا القديم ، ..كاد تحمل طابعا ذاتيا ، لذا كان ابن بسام دقيقا فى إشارته المختصرة حين قدم

هذه المقامة بقوله : « تعرب عن حفظ كثير » .

و ينتهى اختيار ابن بسام من هذه المقامة بفصل يعرّض فيه بحاجته و يشكو فاقته :

« و يالهفى ألا تكون معونتى له إلا باللسان ، دون السّنان ، أطاعن أمامه دِرَاكا ، وأزاحِمُ قُدّامه الأقران لكاكا ؟ ولولا أفْرُخٌ كزُغْب القطا ، يدِبُّون فى نائِله عندى دَبيبَ الكَرى ، فيستشفون عُلالتى ، و يَستنزِفون بُلالتى لامتطيت من جدْواه السابح اليعبوب ، وتقلَّدْتُ من نداه الصَّارِم الَّرسوب ، واعتقلتُ من عَطائه الصَّعدةَ السَّمراء وادَّرعتُ من حِبائه الفضفاضة الجَدْلاء .... »

و يبدو أن المقامة لم تقتصر على المدح بل تخطته إلى أغراض أخرى ، وضمت إليه فصولا نقدية طو يلة تناول فيها شعراء العر بية وكتابها من الجاهلية إلى عصره ، و يبدو أنه كان قاسيا فى أحكامه عليهم كما يظهر من قول ابن بسام (٩٠) :

« ومدّ ابن مالك فى رسالته هذه أطناب الإطناب ، وشنَّ الغارة فيها على عدّة شُعراء وكُتّاب ، من جاهليين ، ومخضرمين ، ومحدثين ومعاصر ين ، ولو ذكرت من أين استلب واختطف جميعَ ما وصف ، وانصرف إلى كلِّ أحدٍ كلامُه ، نثره ونظامه ، لَحَصَلَ هو ساكتا و بقى باهتا » .

******

ومن مقامات القرن الخامس أيضا مقامة لابن المعلم أبى الوليد محمد بن عبد العز يز بن المعلم (٩١) ، رواها ابن بسام فى الذخيرة (٩٢) ، وهى من مقامات المدح الخالص ، و يرجح إحسان عباس أنه قالها فى المعتضد إذ كان وز يرا له (٩٣) وهى لا تختلف عن سابقتها فى الإغراق فى وصف الممدوح والمبالغة فى رصد مناقبه وإظهار الحاجة إلى عطاياه وإن كانت أقرب منها إلى النفس ، لأن ابن المعلم ساقها فى ألفاظ سهلة وتراكيب مقبولة ، كما أدخل عليها شيئا من

(٩٠) الذخيرة : ٧٥٢/١

(٩١) جذوة المقتبس : ٧٠ رقم ١٠١ (ت ٤٨٨ هـ) ، و بغية الملتمس : ١٠٤ رقم ٢٠٣

(٩٢) الذخيرة : ١١٣/٢ ــ ١١٨

(٩٣) تار يخ الأدب الأندلسى ٣١٣ وانظر الذخيرة : ١١٢/٢

الحيو ية حين أدارها على نفسه وكأنه نصب ذاته بطلا لها ، وأدخل عليها شيئا من الحيو ية حين أدار فى بعض فصولها حوارا بينه و بين بعض أصدقائه حين رأى عزمه على الرحيل طلبا للنوال جاء فيه :

« ونخل لى نصيحته وقال : أرى أن لاتريم بَيْضَتك وأروَمتَك ، وأن تُوطن أرضك ولا تفارق عشيرتك ، وأربأبك عن مُضِلاَّتِ المنى ، وأعِيذُكَ من تُرَّهاتِ لعلّ وعسى ، فتحسبُ كل بيضاء شحمة ، وتظنُّ كلَّ سوداء تمرة ، وربما سَقَطَ العشاء بك على سِرْحان ، وكل الناس بكرة وفى كل وادٍ بنو سعد :

والرفق يمنٌ والأناةُ سعادةٌ فاستأنِ فى رفق تلاقِ نجاحا

وإن أبيت إلا التحوُّلَ ، فعليك من الرؤساء بأحلم الحلماء ، ومن القرباء بأشرف الشرفاء ، ولا تغُرَّنَّك المناصبُ ، دونَ المناسب ، ولا المَقولُ دون المعقول ، ولا الدراهمُ دون المكارم ، وازهدْ فى أكثر كلّ عين ، واذكرْ قول ابن الحسين :

وما رغبتى فى عَسْجَدٍ أستفيده ولكنّها فى مَفْخَرٍ أستجِدُّهْ

فلما سمعت ووعيتُ ، ارتكنتُ وتوليت ، ثم أبيت قبولا ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، وناقضتُ نُصحَهُ بقول حبيب :

وإنّ صريحَ العزم والرأى لامرىء إذا بلغته الشمس أن يتحولا

ومغترا بقول الثانى :

تلقى بكلّ بلادٍ أنت نازلها أهلاً بأهلٍ وجيرانا بجيرانِ »

وهكذا يمضى ابن المعلم فى مقامته ، يظهر لنا كيف ركب رأسه ، فلم يظفر من اغترابه بغير الشقاء والندم ، فلما تمكن منه اليأس قرع بابه بشير مولاه يحمل إليه كتابه ، وهنا يسنح لابن المعلم المخلص المدحى ليعرض شعره ونثره فى ممدوحه حين تفاوض والرسول فى وصف معاليه ، واستنشده الرسول ما قال فيه .

* * * * * * *

أكثر مما فاتنا من مقامات المشارقة ، فقد تعرضت الآثار المغربية والأندلسية لعوامل الضياع والفناء ، ومابقى منها لم ينشر أكثره الى اليوم .

ومن هذه الآثار التى تأدت إلينا أسماؤها دون شخوصها مقامات محمد بن الحسن الطويى الذى عاش فى صقلية وتولى الإنشاء بها ، وكان نحويا يحترف الطب (٩٤) ، كما كان شاعرا مفلقا وكاتبا مجودا متفننا فى الرسائل حتى مدحه ابن القطاع بقوله (٩٥) :

أنت فى النثر البديهـ ـــتى وفى النظم السلامى
فاضل الآباء والنفـ ـس عظامى عصامى

ويبدو أنه برع فى مقاماته فقد ذكر القفطى أنه ألف مقامات حسنة (٩٦) . وصفها بقوله (٩٧) :

« وله مقامات تزرى بمقامات البديع ، وإخوانيات كأنها زهر الربيع »

ولا شك فى أن هذه التجارب المقامية كانت إلى جوار عمل البديع جذوه قبس منها الحريرى حين أتيح له فى مطلع القرن السادس أن يخرج على جمهور الأدباء بعمله الأدبى الشامخ ، الذى بهر به الناس إلى يومنا هذا ، وأحدث به حركة أدبية أتاحت لهذا الفن مالم يتح له من قبل من النضج والازدهار .

---

(٩٤) الخريدة/المغرب : ١/٥٦

(٩٥) إنباه الرواة : ٣/١٠٧

(٩٦) المرجع السابق : ٣/١٠٨

(٩٧) المرجع السابق : ٣/١٠٧ ، وانظر المحمدون من الشعراء : ٣٥٤

أهم المصادر والمراجع

اولا : النصوص المقامية :

ــ بديع الزمان الهمذاني : مقاماته بشرح الشيخ محمد عبده ، دار المشرق ، المطبعة الكاثوليكية ، الطبعة السابعة ١٩٧٣ م .

ــ ابن بطلان الطبيب : أبو الحسن المختار بن الحسن
ــ دعوة الأطباء (على مذهب كليلة ودمنة) بتصحيح بشارة زلزل ، الاسكندرية ، المطبعة الخديوية ١٩٠١ م .

ــ ابن الجوزى (٥١٠ ــ ٥٩٧ هـ) :
ــ مقاماته
١ ــ المقامات الجوزية فى المعانى الوعظية وشرح الكلمات اللغوية
الأسكوريال رقم ٥٤٢ ، مصورة معهد المخطوطات العربية ٥١/٣
ب ــ بتحقيق على جميل على مهنا ، رسالة دكتوراه ــ كلية اللغة ، جامعة الأزهر ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م

ــ الحريرى : أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان البصرى (ت ٥١٦ هـ)
ــ مقاماته : أ ــ القاهرة ، المطبعة الحسينية ١٣٢٦ هـ
ب ــ بيروت ، دار صادر ، دار بيروت ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥

ــ الحنفى : أبو العلاء أحمد بن أبى بكر بن أحمد الرازى
مقاماته (مقامات الحنفى وابن ناقيا وغيرهما) استانبول ، مطبعة أحمد كامل ١٣٣١ هـ

ـ الزمخشري : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ)
ـ مقامات الزمخشري
القاهرة ، مطبعة التوفيق ، الطبعة الثانية ١٣٢٥ هـ

ـ السرقسطي : ابو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله المازني (ت ٥٣٨ هـ)
ـ المقامات اللزومية
بتحقيق بدر أحمد ضيف ، الهيئة المصرية ١٩٨١

ـ ابن شرف القيرواني : أبو عبيد الله محمد بن شرف (ت ٤٦٠ هـ)
ـ أعلام الكلام
عني بتصحيحه وضبط ألفاظه عبد العزيز أمين الخانجي ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الاولى ١٣٤٤ هـ/١٩٢٦ م وانظر الذخيرة ٤/١٩٦ ـ ٢١١
ـ المقامة (الجرجانية) الذخيرة ٤/٢١٢ ـ ٢١٤

ـ ابن شهيد الأندلسي : ـ التوابع والزوابع
١ ـ الذخيرة ١/٢٤٥ ـ ٣٠١
ب ـ بتصحيح بطرس البستاني ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م .

ـ ابن الشهيد التجيبي : أبو حفص عمر
ـ مقامة (مشاهدات) في مدح الفقية ابن الحديد
الذخيرة ١/٦٧٤ ـ ٦٨٥

ـ ابن الصقيل الجزرى : ـ المقامات الزينية
بتحقيق عباس مصطفى الصالحى ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م

ـ ابن فتوح : (عبد الرحمن) :
ـ مقامة (عن الشعراء) (رمضان سنة ٤٣٠ هـ) الذخيرة ١/٧٨٦
ـ مقامة (الغلام المعذر) الذخيرة ١/٧٧٨

ـ ابن مالك القرطبى : أبو محمد :
ـ مقامة فى مدح ابن صمادح (٤٤٣ ـ ٤٨٤ هـ) الذخيرة ١/٧٤١ ـ ٧٥٢

ابن مسلم : أبو عبد الله محمد
ـ طى المراحل (مقامة مدحية نستطيع ردها الى سنة ٤٥٢ هـ) الذخيرة ٣/٤٣٩

ـ ابن المعلم : أبو الوليد محمد بن عبد العزيز بن المعلم
ـ مقامة مدحية قالها فى مدح المعتضد (ت ٤٨٨ م) الذخيرة ٢/١١٣ ـ ١١٨

ـ ابن ناقيا : أبو القاسم عبدالله (وقيل عبدالباقى) بن محمد بن الحسين بن داود (٤١٠ ـ ٤٨٥)
ـ مقاماته : نشرت مع مقامات الحنفى فى مجلد واحد بعنوان مقامات الحنفى وابن ناقيا وغيرهما استانبول ، مطبعة أحمد كامل ١٣٣١ هـ
ـ المقامة الأولى (فى الضب)
وانظر تطور فن المقامة ص ٩٥

ثانيا : المصادر والمراجع العربية القديمة :

ا ــ المخطوطات :

ــ ابن دريد : أبوبكر محمد بن الحسن (٢٢٣ ــ ٣٢١ هـ)
ــ الأخبار المنثورة المروية
مخطوط مصور برقم ٩١٣ أدب بمعهد المخطوطات العربية عن المكتبة الخالدية بالقدس ١٥ مهمل (دشت)
ــ أمالي ابن دريد (تعليق) رواية أبي مسلم محمد بن أحمد بن علي الكاتب عنه مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية برقم ٩٨٦ أدب عن الخزانة العامة بالرباط ١٥٣ ق
ــ من أخبار أبي بكر بن دريد
مخطوطة دار الكتب رقم ٦ لغة ش وعنها مصورة برقم «١٠ م» بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية
مخطوطة مكتبة رئيس الكتاب رقم ٢٢٩٦٧ وعنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية (١١ أدب) وأخرى بمكتبة جامعة القاهرة (٨٧٩) .

ــ ابن هشام اللخمي : أبو عبد الله محمد بن أحمد
ــ ذكر نسب أبي بكر بن دريد وجمل من أخباره
مخطوطة مكتبة الزاوية الحمزاوية تحت رقم ٢٢٦

ب ــ رسائل جامعية مخطوطة :

ــ بدر أحمد ضيف :

ــ مقامات السرفسطى اللزومية (دراسة وتحقيق)
رسالة دكتوراه ــ كلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية ١٩٧٩م

ــ طلعت محمد اسماعيل أبو فرحة :

ــ مقامات حميد الله الفارسية مع ترجمتها إلى العربية ومقارنتها بمقامات بديع الزمان الهمذانى
رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٦٣م .

ــ عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجى :

ــ فن المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلس
رسالة دكتوراه مخطوطة ــ كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٤م

ــ على جميل على مهنا :

ــ ابن الجوزى ومقاماته الأدبية
رسالة دكتوراه ــ كلية اللغة جامعة الأزهر ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م

ــ محمد رشدى حسن :

ــ تطور فن المقامة العربية
رسالة دكتوراه مخطوطة ــ كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٦٠م

ج ـ المطبوعات :

ـ ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى (٥٥٩ ـ ٦٥٨ هـ)
الحلة السيراء، بتحقيق حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٦٣م

ـ إبراهيم بن المدبر: (تنسب إليه)
ـ الرسالة العذراء، بشرح وتحقيق زكى مبارك، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية ١٣٥٠هـ/١٩٣١م

ـ ابن الأثير: ضياء الدين
ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، بتحقيق أحمد الحوفى و بدوى طبانة، القاهرة، مطبعة الرسالة ١٣٨١هـ/١٩٦٢م

ابن الأثير: على بن محمد (ت ٦٣٠هـ)
ـ الكامل فى التاريخ، بيروت، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٧م.

الإدفوى: أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨هـ)
ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، بتحقيق سعد محمد حسن، ومراجعة طه الحاجرى القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

ـ الاربلى : بهاء الدين على أبو الحسن
ـ رسالة الطيف ، بتحقيق عبد الله الجبورى ، بغداد ، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .

ـ الأزهرى : أبو منصور محمد بن أحمد (٢٨٢ ـ ٣٧٠ هـ)
ـ تهذيب اللغة (الجزء الأول) ، حققه عبد السلام محمد هارون وراجعه محمد على النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م

ـ أسامة بن منقذ : (٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ) :
ـ العصا بتحقيق حسن عباس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٨١ م .

ـ الأصمعى : أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (١٢٢ ـ ٢١٦ هـ)
ـ الأصمعيات بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، القاهرة دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م
ـ فحولة الشعراء ، شرح وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجى وطه محمد الزينى ، القاهرة ، المطبعة المنيرية بالأزهر ، الطبعة الأولى ١٣٧٢ هـ/١٩٥٣ م

ـ بديع الزمان الهمذانى :

ـ ديوانه بالتزام الشيخ عبد الوهاب رضوان ، ومحمد شكرى المكى القاهرة ، مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ/١٩٠٣ م .
ـ رسائله ، القاهرة ، مطبعة هندية ، طبعة رابعة ، ١٣٤٦ هـ/١٩٢٨ م

ــ البديعى : الشيخ يوسف (١٠٧٣ هـ)
ــ الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ، بتحقيق مصطفى السقا ، ومحمد شتا ، وعبده زيادة عبده ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .

ــ ابن بسام الشنتريني : أبو الحسن على
ــ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، بتحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م .

ــ البيهقى : إبراهيم بن محمد
ــ المحاسن والمساوى (ينسب إليه) ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٣٨٠ هـ/١٩٦١ م .

ــ ابن تغرى بردى الاتابكى : جمال الدين أبى المحاسن يوسف
ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية .

ــ الثعالبى : الامام أبو منصور عبد الملك الثعالبى النيسابورى (ت ٤٢٩ هـ)
ــ يتيمة الدهر ، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ/١٩٧٣ م

ــ الجاحظ : ــ البخلاء ، تحقيق الدكتور محمد طه الحاجرى ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ١٩٧١ م .
ــ البيان والتبين تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، الطبعة الثانية ١٩٦١ م .

ـ حاجى خليفة : مصطفى بن عبد الله . كاتب جلبى (١٠٦١ هـ)
ـ كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .
الأستانه . طبع بعنايه وكالة المعارف ١٩٤١ ـ
١٣٦٠ هـ .

ـ ابن حجر العسقلانى : (٧٧٣ ـ ٨٥٣ هـ)
ـ الإصابة فى تمييز الصحابة . بتحقيق الدكتور
طه محمد الزينى القاهرة ، مكتبة الكليات
الأزهرية ١٩٦٩ ـ ١٩٧٣ م

ـ ابن حجة الحموى : ـ خزانة الأدب وغاية الأرب ، القاهرة . الطبعة
الأولى ، المطبعة الخيرية ١٣٠٤ هـ .

ـ الحصرى القيروانى : أبو إسحق إبراهيم بن على (ت ٤٥٣ هـ)
ـ زهر الآداب وثمر الألباب ، بتحقيق زكى
مبارك ، بيروت دار الجيل ، مكتبة المحتسب .
الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .

ـ الحميدى : أبو عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبد الله
الأزدى (ت ٤٨٨ هـ)
ـ جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ـ
القاهرة . الدار المصرية للتأليف والترجمة . مطابع
سجل العرب ١٩٦٦ م

ـ ابن خالويه :
ـ الحجة فى القراءات السبع ـ بتحقيق عبد
العال سالم كرم ، بيروت ـ القاهرة ، دار
الشروق ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

الخطيب البغدادى : ابو بكر أحمد بن على بن ثابت (٤٦٣ هـ)
ـ تاريخ بغداد ، القاهرة ، مطبعة السعادة
١٩٣١ م .

ـ ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر
(٦٠٨ ـ ٦٨١ هـ)
ـ وفيات الأعيان ، بتحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة مطبعة الغريب

ـ الخوارزمى : أبو بكر
ـ رسائل الخوارزمى ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٧٠ م

ـ الخوانسارى : الميرزا محمد باقر الموسوى الأصبهانى
ـ روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ، بتحقيق أسد الله اسماعيليان ـ طهران ، المطبعة الحيدرية ١٣٩٠ هـ

ـ ابن خير الأشبيلى : أبو بكر محمد بن خير بن عمر خليفة الأموى
(٥٠٢ ـ ٥٧٥ هـ)
ـ فهرسة ابن خير ، بتحقيق فرنشسكة قداره زيدين ، وتلميذه خليان ربارة طرغوه ، طبعة جديدة عن الأصل المطبوع فى مطبعة قومش بسرقسطة سنة ١٨٩٣ م ، المكتب التجارى ببيروت ، مكتبة المثنى ببغداد ، مؤسسة الخانجى ، بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٢ هـ/١٩٦٣ م

ـ ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ)
ـ الاشتقاق ، بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٥٨ م
ـ المجتنى ، حيدر آباد الدكن ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ١٣٤٢ هـ

- الدلجى : شهاب الدين أحمد بن على
- الفلاكة والمفلوكون ، بغداد ، مكتبة الأندلس ، مطبعة الآداب بالنجف ١٣٨٥ هـ

- الزبيدى : محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت ١٢٠٥)
- شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس ، القاهرة ١٣٠٦ هـ

- الزجاجي : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت ٣٤٠ هـ)
- أماليه بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، المؤسسة العربية الحديثة ، مطبعة المدنى ، الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ

- الزمخشري : جار الله ابو القاسم محمود بن عمر (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ)
- اساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٢ هـ/١٩٥٣م

- زهير بن أبى سلمى :
- ديوانه ، بشرح ثعلب ، القاهرة ، الدار القومية ، ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤م

- ابن سعيد الأندلسي :
- رايات المبرزين وغايات المميزين ، بتحقيق النعمان عبد المتعال القاضي - القاهرة ، مطابع الأهرام ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣م
- المغرب فى حلى المغرب - بتحقيق شوقى ضيف ، القاهرة دار المعارف ، طبعة ثانية منقحة ١٩٦٤م

ـ السلمى : أبو عبد الرحمن (ت ٤١٢ هـ)
ـ طبقات الصوفية ، بتحقيق نور الدين شر يبة ، القاهرة ، مطبعة دار التأليف ، الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م

ـ السيوطى : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ)
ـ الأشباه والنظائر ، حيدر آباد الدكن ، مطبعة دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية ١٣٥٩ هـ
ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغو يين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، عيسى الحلبى ، الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٥ م .
ـ المزهر بشرح وتصحيح محمد أحمد جاد المولى وعلى محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم (دون تأر يخ)

ـ ابن شاكر الكتبى : (ت ٧٦٤ هـ)
ـ فوات الوفيات ، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٥١ م

ـ شهاب الدين أحمد الخفاجى :
ـ شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ

ـ الصولى : (ت ٣٣٥ هـ)
ـ أخبار الشعراء ، المسمى كتاب الأوراق ، عنى بجمعة ج . هيوارث دن .

ـ الضبى : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩ هـ)
ـ بغية الملتمس فى تار يخ رجال أهل الأندلس ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، مطابع سجل العرب ١٩٦٧ م

ـ أبو الطيب اللغوى : عبد الواحد بن على (ت ٣٥١ هـ)
ـ مراتب النحويين . حققه محمد ابو الفضل إبراهيم . القاهرة مكتبة نهضة مصر ١٣٧٥ هـ/١٩٥٥م

ـ العباس بن مرداس :
ـ ديوانه ، جمعه وحققه يحيى الجبورى ، بغداد ، دار الجمهورية ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨م

ـ العباسى : عبد الرحيم بن عبد الرحمن (ت ٩٦٣ هـ)
ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص . بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . القاهرة ، مطبعة السعادة ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨م

ـ ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد
ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب (على هامش الإصابة)

ـ ابن عبد ربه الأندلسى : أبو عمر أحمد بن محمد
ـ العقد الفريد بتحقيق أحمد أمين وإبراهيم الإبيارى وعبدالسلام هارون ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨م ، ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩م .

ـ ابن العبرى : العلامة غريغوريوس أبو الفرج بن هرون الطبيب الملطى
ـ تاريخ مختصر الدول ، وقف على طبعه أنطون صالحانى اليسوعى . بيروت ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ١٨٩٠م

ـ العبيدى : محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد (ق٨هـ)
ـ التذكرة السعدية فى الأشعار العربية ، تحقيق عبد الله الجبورى ، بغداد ، المكتبة الأهلية ١٩٧٢م

ـ العسكرى : أبو أحمد الحسن بن عبد الله (ت ٣٨٢هـ)
ـ المصون فى الأدب ، بتحقيق عبد السلام هارون ، الكويت ١٩٦٠م

ـ أبو العلاء المعرى : أحمد بن عبد الله بن سليمان (٣٦٣ ـ ٤٤٩هـ)
ـ رسالة الصاهل والشاحج تحقيق عائشة عبد الرحمن ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٥م .
ـ الغفران تحقيق عائشة عبد الرحمن ، القاهرة ، دار المعارف الطبعة الخامسة ١٩٦٩م
ـ الفصول والغايات ، بتحقيق محمود حسن زناتي ، الهيئة المصرية ١٩٧٧م .

ـ على بن محمد الجرجاني : (٧٤٠ ـ ٨١٦هـ)
ـ كتاب التعريفات ، بيروت ، مكتبة لبنان ١٩٦٩م

ـ ابن العماد الحنبلى : عبد الحى (ت ١٠٨٩هـ)
ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ١٣٥٠هـ

ـ العماد الأصفهانى الكاتب :
ـ خريدة القصر وجريدة العصر
١ ـ قسم شعراء الشام بتحقيق شكرى فيصل ـ دمشق ، المطبعة الهاشمية ١٣٧٥ ـ ١٣٧٨هـ/١٩٥٥ ـ ١٩٥٩م

٢ ــ قسم شعراء العراق بتحقيق محمد بهجة الأثرى ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٣٧٥ ــ ١٣٨٤ هـ
٣ ــ قسم شعراء مصر ، بتحقيق أحمد أمين وشوقى ضيف ، وإحسان عباس ، طبع لجنة التأليف ١٣٧٠ هـ/١٩٥١م
٤ ــ قسم شعراء المغرب والأندلس ، بتحقيق عمر الدسوقى وعلى عبد العظيم ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، مطبعة الرسالة ١٩٦٤م

ــ عمرو بن قميئة : (نحو ٨٥ ق . م/٥٤٠م)
ــ ديوانه بتحقيق حسن كامل الصيرفى ، القاهرة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الحادى عشر ، ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥م

ــ ابن قاضى شهبة : تقى الدين الأسدى الشافعى (ت ٨٥١ هـ)
ــ طبقات النحاة واللغويين ، بتحقيق محسن غياض ، النجف الأشرف ، مطبعة النعمان ١٩٧٤م

ــ القالى : أبو على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى
ــ كتاب الأمالى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م

ــ ابن قتيبة الدنيورى : أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢١٣ ــ ٢٧٦ هـ)
ــ الشعر والشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٦٧
ــ عيون الأخبار ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٣ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩١٤م

ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، عنى بتصحيحه السيد محمد أمين الخانجى ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ
ـ انباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩ ـ ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ م
ـ المحمدون من الشعراء وأشعارهم ، تحقيق رياض عبدالحميد مراد ، دمشق ، مطبعة الحجاز ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م

ـ القلقشندى : أبو العباس أحمد
ـ صبح الأعشى ، القاهرة ، دارالكتب المصرية ١٣٤٧ هـ/ ١٩٢٩

ـ الكلاعى : أبو القاسم محمد بن عبد الغفور
ـ إحكام صنعة الكلام ، تحقيق محمد رضوان الداية ، بيروت ، دارالثقافة ١٩٦٦ م

ـ لبيد بن ربيعة العامرى :
ـ شرح ديوانه ، بتحقيق إحسان عباس ، الكويت ١٩٦٢

لسان الدين بن الخطيب :
ـ الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبدالله عنان القاهرة ، مكتبة الخانجى ١٣٩٣ ـ ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧ م

ـ أبو المطهر الأزدى : محمد بن أحمد
ـ حكاية أبى القاسم البغدادى ، هيدلبرج ، مطبعة كرل ونتر ، ١٩٠٢ م

ــ ابن مكى الصقلى : (ت ٥٠١ هـ)

ــ تثقيف اللسان وتلقيح الجنان . تحقيق عبدالعزيز مطر . القاهرة . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، دارالتحرير للطبع والنشر ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦م

ــ ابن ناقيا البغدادى : (٤١٠ ــ ٤٨٥ هـ)

ــ الجمان فى تشبيهات القرآن ،

اــ بتحقيق عدنان محمد زرزور ومحمد رضوان الداية (الكويت) المطبعة العصرية ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ/١٩٦٨م

بــ بتحقيق وتقديم الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٧٨م

ــ ابن النديم : (ت ٣٨٥ هـ)

ــ الفهرست

بيروت ، دار المعرفة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨م

ــ ياقوت الحموى : أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومى (ت ٦٢٦ هـ)

ــ معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، نشره أحمد فريد رفاعى ، القاهرة ، مطبعة دارالمأمون ١٩٣٦/١٩٣٨

ثالثا : المراجع العربية الحديثة :

إحسان عباس :

ــ تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، بيروت ، دار الثقافة ، الطبعة الرابعة ١٩٧٥

ــ تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) بيروت دارالثقافة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٤م

ــ تاريخ النقد الأدبي عند العرب ــ نقد الشعر ــ من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ، بيروت ، دارالأمانة مؤسسة الرسالة ١٣٩١هـ/١٩٧١م

ــ ملامح يونانية فى الادب العربى ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٧م

ــ أمين عبد المجيد بدوى :

ــ القصة فى الأدب الفارسى ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٤م

ــ أنس داود :

ــ دراسات نقدية فى الأدب الحديث والتراث العربى ، القاهرة مكتبة عين شمس ، دارالجيل للطباعة ١٩٧٥م

أنيس المقدسى :

ــ تطور الاساليب النثرية فى الأدب العربى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الرابعة ١٩٦٨م

ـ حامد عبد القادر: ـ القصص الحيواني وكتاب كليلة ودمنة في الآداب الشرقية والغربية القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠م

ـ حسن السندوبي:
ـ أدب الجاحظ، القاهرة، المطبعة الرحمانية ١٩٣١م.

ـ الحوفي: أحمد محمد
ـ تيارات ثقافية بين العرب والفرس، القاهرة، مطبعة نهضة مصر ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨

ـ أبوخشب: إبراهيم علي
ـ تاريخ الأدب العربي (في العصر العباسي الثاني)، القاهرة دار الفكر العربي، دار الثقافة العربية للطباعة.

ـ خفاجي: محمد عبد المنعم
ـ الاسلام والحضارة الإنسانية، بيروت، دار الكاتب اللبناني الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣

ـ زكي مبارك:
ـ النثر الفني في القرن الرابع، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.

ـ السباعي بيومي:
ـ تاريخ الأدب العربي، الجزء الثالث في العصر العباسي بالمشرق، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٨م
ـ تاريخ القصة والنقد في الأدب العربي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى ١٩٥٦م

ـ الشكعة : مصطفى
ـ الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ١٩٧٥
ـ الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية (كتاب النثر) ، بيروت دار الكتاب اللبنانى ، الطبعة الثانية ١٩٧٤
ـ بديع الزمان الهمذانى ـ رائد القصة العربية والمقالة الصحفية ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٩ م

ـ شوقى ضيف :
ـ العصر الجاهلى ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة السابعة ١٩٧٧ م .
ـ عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية ـ العراق ـ إيران) القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٠ م
ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ١٩٧١
ـ المقامة ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣

ـ عبد الجواد الجومرد :
ـ الأصمعى حياته وآثاره ، بيروت ، مطابع دار الكشاف ١٩٥٥

ـ عبد الرحمن بدوى :
ـ مؤلفات الغزالى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ م

ـ عبد الرحمن ياغى :
ـ رأى فى المقامات ، بيروت ، المكتب التجارى ، الطبعة الأولى ١٩٦٩ م .

ـ عبد الملك مرتاض :

ـ القصة في الأدب العربي القديم ، الجزائر ، دار ومكتبة الشركة الجزائرية ١٩٦٨م

ـ عبد النافع طليمات :

ـ أهل الكدية أبطال المقامات في الأدب العربي ، حمص ، دار ابن الوليد ، مطابع الفجر الحديثة ١٩٥٧م .

ـ عمر فرّوخ :

ـ تاريخ الأدب العربي (الجزء الثاني ـ عصر العباسية) بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨م .

ـ الرسائل والمقامات ، بيروت ، مكتبة منيمنة ، ١٣٦١هـ/١٩٤٢م

فيكتور الككّ :

ـ بديعات الزمان (بحث تاريخي تحليلي في مقامات الهمذاني) مقدمة فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦١م .

ـ مارون عبود :

ـ بديع الزمان الهمذاني ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ١٩٧١م

ـ محمد بن تاويت :
محمد الصادق عفيفي
ـ الأدب المغربي ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

محمد رضوان الداية :

ـ تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، بيروت ، دار الأنوار الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨م

ـ محمد كرد علي :

ـ رسائل البلغاء ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ١٣٦٥ هـ/١٩٤٦م

ـ كنوز الأجداد ، دمشق ، مطبعة الترقي ١٣٧٠ هـ/١٩٥٠م .

ـ محمد مصطفى رضوان :

ـ العلامة اللغوى ابن فارس الرازى ، دار المعارف بمصر ١٩٧١م

ـ محمد نبيه حجاب :

ـ بلاغة الكتاب فى العصر العباسى (دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب) ، القاهرة ، المطبعة الفنية الحديثه ، الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥م

ـ محمود رزق سليم :

ـ عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى (المجلد السادس فى النثر الفنى) ، القاهرة ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، ١٣٨١ هـ/١٩٦٢م .

ـ محمود غناوى الزهيرى :

ـ الأدب فى ظل بنى بويه ، القاهرة ، مطبعة الأمانة ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩م

ـ موسى سليمان :

ـ الأدب القصصى عند العرب ، بيروت ، مكتبة المدرسة ، ودار الكاتب اللبنانى ، طبعة رابعة ١٩٦٩م

ـــ يحكى عن العرب ، بيروت ، مكتبة المدرسة ،
ودار الكتاب اللبناني :

ج ١ : طبعة رابعة ١٩٦٧م

ج ٢ : طبعة ثانية ١٩٦٢م

ـــ يوسف نور عوض :

ـــ فن المقامات بين المشرق والمغرب ، بيروت ،
دار القلم الطبعة الأولى ١٩٧٩م

رابعا : المراجع الأجنبية :

١ ــ المعربة :

ــ بروكلمان : كارل

ــ الأجزاء الستة الأولى بتعريب عبدالحليم النجار ورمضان عبد التواب والسيد يعقوب بكر، القاهرة ــ دارالمعارف ١٩٦٨ ــ ١٩٧٥م

ــ فؤاد سزكين :

ــ تاريخ التراث العربى ، نقله إلى العربية الدكتور فهمي أبوالفضل وراجعه الدكتور محمود فهمى حجازى ، القاهرة الهيئة المصرية ١٩٧١م .

ب ــ غير المعربة :

بهار: محمد تقى (ملك الشعراء) :

ــ سبك شناسي ــ تهران ١٣٣١ هـ

ــ فارس ابراهيمى حريرى :

ــ مقامه نوبى در أدبيات فارسى وتأثير مقامات عربى درآن

انتشارات دانشكاه تهران ١٣٤٦

Brockelmann: Geschichte Der Arabischen Litteratur, Leiden, E. Brill 1937.

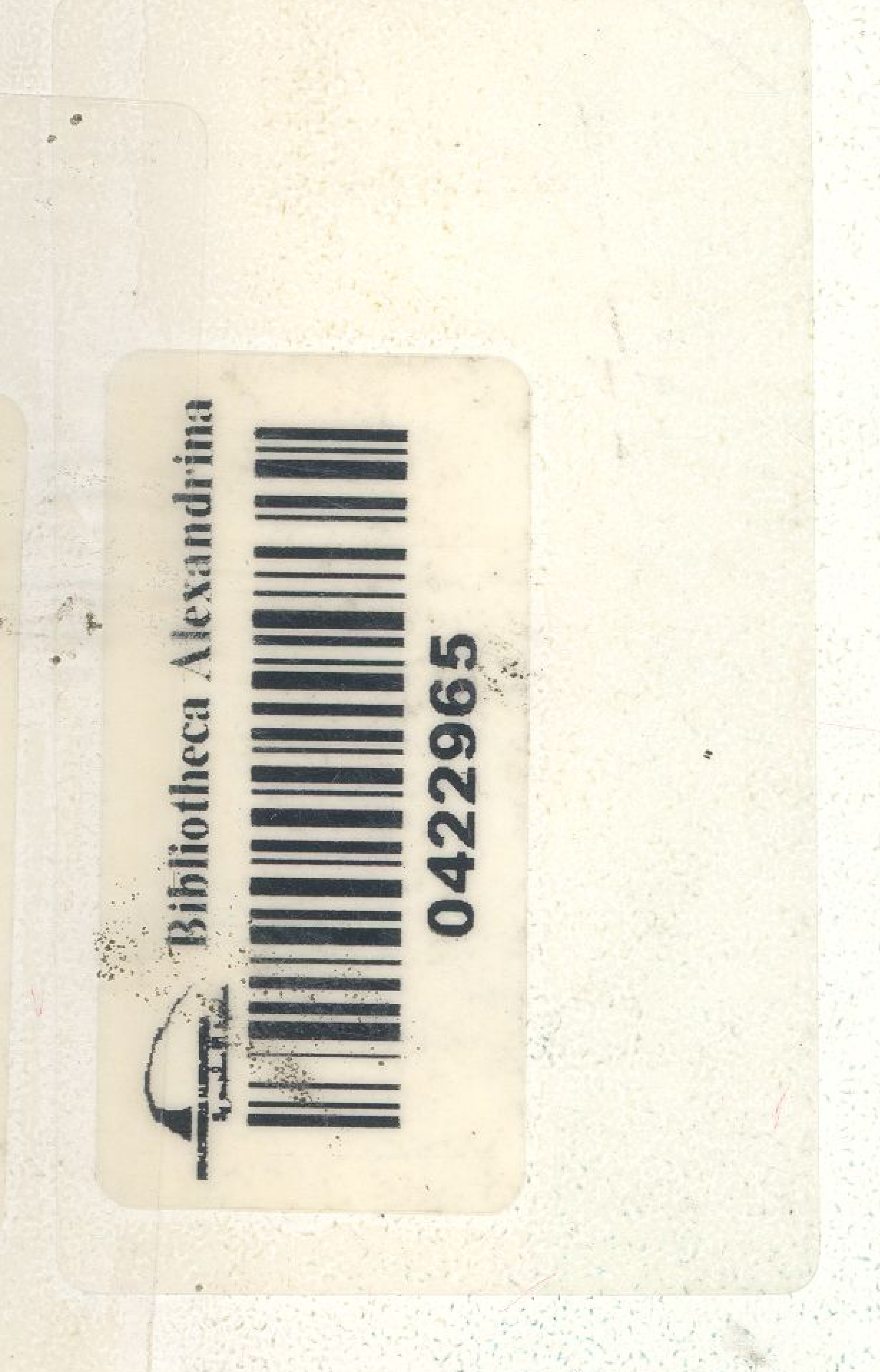
Chenary, Thomas: The Assemblies of Hariry, London, 1867.

Huart: Les Séances D'Ibn Uaqiya, Paris, Imprimerie Nationale, 1908.

The Encyclopaedia of Islam (Makama)

مطالب الكتاب

تقديم بقلم أستاذنا الجليل الدكتور محمد مصطفى هدارة


Bibliotheca Alexandrina
04222965